

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة :

الحمد لله مجزل العطاء ومسبغ النعم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو الفضل والإحسان والجود والكرم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيّد العرب والعجم ، المخصوص من ربّه بجوامع الكلم، اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله أهل المكارم والشّيم ، وعلى أصحابه مصابيح الدّجى والظّلم ، الذين أكرمهم الله فجعلهم خير أمة هي خير الأمم ، وعلى كل من جاء بعدهم مقتفياً آثارهم ، وقد خلا قلبه من الغلّ للمؤمنين وسلّم .

أما بعد ، فمن باب حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نصّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، فمن هذا الباب قد انطلقت إلى جمع بعض أحاديث مع شرحهم ولكن هذه الأحاديث يكون قد رواها عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله تعالى عنهما ، فسمّيت الكتاب : { كَلِمَاتُ دُرَرٍ مِنْ أَحَادِيثِ عَبْدِ اللَّهِ وَوَالِدِهِ عُمَرَ } .

وغير أنني قد كنت من زمن راغب في جمع هذه الأحاديث حتى تاحت لي الفرصة في جمع هذه الأحاديث النيرة التي تخرج من مشكاة النبوة ، التي هي مصدر لنا في التشريع بعد كتاب الله تعالى الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم . ومن اتبع غير سبيلهما ضلّ وخاب وخسر في الدنيا والآخرة ، ومن تمسك بهما اهتدى ونجى وفلح في الدنيا والآخرة ، فأسأل الله تعالى أن يوفّقني لما يحبه ويرضاه ، وأسأله أن يجعلنا ممّن يتمسك بالكتاب والسنة وأن نموت على ذلك ...

عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي ، أمير المؤمنين ، أبو حفص القرشي العدوي ، الفاروق رضي الله عنه .

استشهد في أواخر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وأمّه حنتمة بنت هشام المخزومية أخت أبي جهل ، أسلم في السنة السادسة من النبوة وله سبع وعشرون سنة .

روى عنه : علي ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وعدة من الصحابة ، وعلقمة بن وقاص ، وقيس بن أبي حازم ، وطارق بن شهاب ، ومولاه أسلم ، وزر بن حبيش ، وخلق سواهم .

وعن عبد الله بن عمر قال : كان أبي أبيض تعلوه حمرة ، طويلاً ، أصلع ، أشيب . (سير أعلام النبلاء ٧١١٢٨)

قال ابن مسعود : ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر . (البخاري (٣٦٨٤)

وقالت عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قد كان في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر بن الخطاب " . (رواه مسلم ١١٥١٧) .

وقال الشعبي : قال علي رضي الله عنه : ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر . (سير أعلام النبلاء ٧٦١٢٨)

وقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بينا أنا نائم أتيت بقدح من لبن فشربت منه حتى إني لأرى الري يجري في أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر " . قالوا : فما أولت ذلك ؟ قال : " العلم " . (أخرجه الإمام أحمد ٨٣٤١٢ ، والدارمي (٢١٦٠) ، والبخاري ٣١١١ ، ومسلم ١١٢١٧ ، والترمذي (٢٢٨٤) و (٣٦٨٧) والنسائي في فضائل الصحابة (٢١) و (٢٢) .

وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دخلت الجنة فرأيت قصرًا من ذهب فقلت : لمن هذا ؟ فقيل : لشاب من قريش ، فظننت أني أنا هو ، فقيل : لعمر

بن الخطاب " (أخرجه الإمام أحمد ١٩١٣ ، وإسناده صحيح) وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " بينما أنا نائم رأيتني في الجنة ، فإذا امرأة توضع إلى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لعمر ، فذكرت غيره عمر ، فوليت مدبرا " . قال : فبكى عمر ، وقال : بأبي أنت يا رسول الله أعليك أغار ؟ (أخرجه أحمد ٣٣٩١٢) ، والبخاري (١٤٢١٤) ومسلم ١١٤١٧ ، وابن ماجه (١٠٧) والنسائي في فضائل الصحابة (٢٧) .

نِسَائِهِ وَأَوْلَادِهِ :

تزوج زينب بنت مطعون ، فولدت له عبد الله ، وحفصة ، وعبد الرحمن .
وتزوج مليكة الخزاعية ، فولدت له عبيد الله ، وقيل : أمه وأم زيد الأصغر أم كلثوم بنت جرول .
وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومية ، فولدت له فاطمة .
وتزوج جميلة بنت عاصم بن ثابت فولدت له عاصما .
وتزوج أم كلثوم بنت فاطمة الزهراء وأصدقها أربعين ألفا ، فولدت له زيدا ورقية .
وتزوج لهية امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر .
وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل التي تزوجها بعد موته الزبير . (سير أعلام النبلاء ١٢٨ / ٨٧ - ٨٨)

فُتُوحَاتِهِ :

snamalislam

وقال الليث بن سعد : استخلف عمر فكان فتح دمشق ، ثم كان اليرموك سنة خمس عشرة ، ثم كانت الجابية سنة ست عشرة ، ثم كانت إيلياء وسرخ لسنة سبع عشرة ، ثم كانت الرمادة وطاعون عمواس سنة ثمانى عشرة ، ثم كانت جلواء سنة تسع عشرة ، ثم كان فتح باب ليون وقيسارية بالشام ، وموت هرقل سنة عشرين ، وفيها فتحت مصر ، وسنة إحدى وعشرين فتحت نهاوند ، وفتحت الإسكندرية سنة اثنتين

وعشرين ، وفيها فتحت إصطخر وهمذان ، ثم غزا عمرو بن العاص أطرابلس المغرب ، وغزوة عمورية ، وأمير مصر وهب بن عمير الجمحي ، وأمير أهل الشام أبو الأعور سنة ثلاث وعشرين . ثم قتل عمر مصدر الحاج في آخر السنة . (سير أعلام النبلاء)

قال خليفة في تاريخه : وقعة جلولاء سنة سبع عشرة . (١٦٠)

استشهاده :

وقال سعيد بن المسيب : إن عمر لما نفر من منى أناخ بالأبطح ، ثم كوم كومة من بطحاء ، واستلقى ورفع يديه إلى السماء ، ثم قال : " اللهم كبرت سني وضعفت قوتي وانتشرت رعتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط " فما انسلخ ذو الحجة حتى طعن فمات . (سير أعلام النبلاء ٨٨١٢٨ - ٨٩)

وقال أسلم ، عن عمر أنه قال : اللهم ارزقني شهادة في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسولك . (أخرجه البخاري ٣٠١٣ في أواخر الحج)

وقال الزهري : كان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده صنعا ويستأذنه أن يدخل المدينة ، ويقول : إن عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس : إنه حداد نقاش نجار ، فأذن له أن يرسل به ، وضرب عليه المغيرة مائة درهم في الشهر ، فجاء إلى عمر يشتكي شدة الخراج ، قال : ما خراجك بكثير ، فانصرف ساخطا يتذمر ، فلبث عمر ليالي ، ثم دعاه فقال : ألم أخبر أنك تقول : لو أشاء لصنعت رحي تطحن بالريح ؟ فالتفت إلى عمر عابسا ، وقال : لأصنعن لك رحي يتحدث الناس بها ، فلما ولى قال عمر لأصحابه : أوعدني العبد أنفا . ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذي رأسين نصابه في وسطه ، فكمّن في زاوية من زوايا المسجد في الغلس . (طبقات ابن سعد ٣٤٥١٣)

وقال عمرو بن ميمون الأودي : إن أبا لؤلؤة عبد المغيرة طعن عمر بخنجر له رأسان ، وطعن معه اثنا عشر رجلا ، مات منهم ستة ، فألقى عليه رجل من أهل العراق ثوبا ، فلما اغتم فيه قتل نفسه . (سير أعلام النبلاء ٩٠١٢٨)

وقال عامر بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه قال : جئت من السوق وعمر يتوكأ علي ، فمر بنا أبو لؤلؤة ، فنظر إلى عمر نظرة ظننت أنه لولا مكاني بطش به ، فجئت بعد ذلك إلى المسجد الفجر فإني لبين النائم واليقظان ، إذ سمعت عمر يقول : قتلني الكلب ، فماج الناس ساعة ، ثم إذا قراءة عبد الرحمن بن عوف . وقال ثابت البناني ، عن أبي رافع : كان أبو لؤلؤة عبدا للمغيرة يصنع الأرحاء ، وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم ، فلقي عمر ، فقال : يا أمير المؤمنين إن المغيرة قد أثقل علي فكلمه ، فقال : أحسن إلى مولاك ، ومن نية عمر أن يكلم المغيرة فيه ، فغضب وقال : يسع الناس كلهم عدله غيري ، وأضمر قتله ، واتخذ خنجرا وشحذه وسمه ، وكان عمر يقول : " أقيموا صفوفكم " قبل أن يكبر ، فجاء فقام حذاءه في الصف وضربه في كتفه وفي خاصرته ، فسقط عمر ، وطعن ثلاثة عشر رجلا معه ، فمات منهم ستة ، وحمل عمر إلى أهله وكادت الشمس أن تطلع ، فصلى ابن عوف بالناس بأقصر سورتين ، وأتى عمر بنبيذ فشربه فخرج من جرحه فلم يتبين ، فسقوه لبنا فخرج من جرحه ، فقالوا : لا بأس عليك ، فقال : إن يكن بالقتل بأس فقد قتلت ، فجعل الناس يثنون عليه ويقولون : كنت وكنت ، فقال : أما والله وددت أني خرجت منها كفافا لا علي ولا لي وأن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت لي . (سير أعلام النبلاء ٩٠/٢٨).

snamalislam

وأما ما قيل أن روية عنه سبع مئة راوٍ فهذا مستبعد جداً كما وضّحه الحافظ ابن حجر في (فتح الباري ١١١) .

وغير هذا فلقد اتفق العلماء على صحّته وتلقّيه بالقبول .

وغير هذا قد صدّر به للبخاري في كتابه ((الصحيح)) ووضعه مكان الخطبة له ، وإشارة منه إلى أن كل عمل لا يراد به وجه الله ، فهو باطل ، لا ثمرة له في الدنيا والآخرة .

وقال الشافعي رحمه الله : هذا الحديث ثلث العلم ، ويدخل في سبعين باباً من الفقه . ((مناقب الشافعي)) (٣٠٢١١)

وعن الإمام أحمد رحمه الله قال : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث : حديث عمر : ((إنما الأعمال بالنيات)) ، وحديث عائشة : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه ، فهو رد)) ، وحديث النعمان بن بشير ((الحلال بيّن والحرام بيّن)) . (أخرجه ابن أبي يعلى في ((طبقات الحنابلة)) (٤٧١) .

وقال ابن رجب الحنبلي في توجيه كلام الإمام أحمد : ((فإنّ الدّين كلّهُ يرجع إلى فعل المأمورات وترك المحظورات ، والتوقف عن الشبهات ، وهذا كلّهُ تضمّنه حديث النعمان بن بشير ، وإنّما يتمّ ذلك بأمرين :

أحدهما : أن يكون العمل في ظاهره على موافقة السنّة ، وهذا هو الذي تضمّنه حديث عائشة : (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد) .

والثاني : أن يكون العمل في باطنه يُقصد به وجه الله عزّو جلّ ، كما تضمّنه حديث عمر : (إنّما الأعمال بالنيات)

وللحافظ أبي الحسن طاهر بن مفوّز المعافريّ الأندلسيّ :

عُمْدَةُ الدّين عندنا كلمات *** أربع من كلام خير البريّة

أتق الشّبهاتِ وازهد وادع ما *** ليس يعنّيك واعملنّ بنية

. (انظر ترجمة أبي الحسن طاهر في سير أعلام النبلاء (٨٨١٩) وهذه الأبيات أوردتها لسيوطي في ((شرحه للنسائي)) (٢٤٢١٧)

والحديث المذكور في الأبيات ازهد في الدنيا يحبّك الناس ... ، فهو ضعيف .

وأما ما روي بقصة مهاجر أم قيس فقد قال ابن دقيق : نقلوا أن رجلاً هاجر من مكة إلى المدينة لا يريد بذلك فضيلة الهجرة وإنما هاجر ليتزوج امرأة تسمى أم قيس ، فلهذا خص في الحديث ذكر المرأة دون سائر ما ينوي به ، انتهى . وهذا لو صح لم يستلزم البداءة بذكره أول الهجرة النبوية . وقصة مهاجر أم قيس رواها سعيد بن منصور قال أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله - هو ابن مسعود قال : من هاجر يبتغي شيئاً فإنما له ذلك ، هاجر رجل ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس فكان يقال له مهاجر أم قيس ورواه الطبراني من طريق أخرى عن الأعمش بلفظ : كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها أم قيس فأبى أن تتزوج حتى يهاجر فهاجر فتزوجها ، فكنا نسميه مهاجر أم قيس . وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ، لكن ليس فيه أن حديث الأعمال سيق بسبب ذلك ، ولم أر في شيء من الطرق ما يقتضي التصريح بذلك . (فتح الباري)

شرح الحديث:

قوله : ((إنما الأعمال بالنيّات)) ، (إنما) أداة حصر ، و(الـ) في (الأعمال) قيل : إنها خاصّة في القرب وقيل : إنها للعموم في كلّ عمل ، فما كان منها قربة أثيب عليه فاعله ، وما كان من أمور العادات كالأكل والشرب والنوم فإن صاحبه يثاب عليه إذا نوى به التقوى على الطاعة ، والألف واللام بـ (النّيّات) بدلاً من الضمير (ها) أي الأعمال بنيّاتها ، والنيّة في اللغة : القصد ، وتأتي للتمييز بين العبادات ، كتمييز فرض عن فرض ، أو فرض عن نفل ، وتمييز العبادات عن العادات ، كالغسل من الجنابة والغسل للتبرّد والتنظّف .

وقال ابن حجر : (إنما الأعمال بالنيّات) كذا أورد هنا ، وهو من مقابلة الجمع بالجمع ، أي كل عمل بنيته . وقال الخوي لعله الحربي كأنه أشار بذلك إلى أن النية تتنوع كما تتنوع الأعمال كمن قصد بعمله وجه الله أو تحصيل موعوده أو الاتقاء لوعيده . ووقع في معظم الروايات بإفراد النية ، ووجهه أن محل النية القلب وهو متحد فناسب إفرادها . بخلاف الأعمال فإنها متعلقة بالظواهر وهي متعددة فناسب جمعها ؛ ولأن النية ترجع إلى الإخلاص وهو واحد للواحد الذي لا شريك له . (فتح الباري ١٨١١) .

فالأعمال تقتضي عاملين ، والتقدير : الأعمال الصادرة من المكلفين ، وعلى هذا هل تخرج أعمال الكفار ؟ الظاهر الإخراج ؛ لأن المراد بالأعمال أعمال العبادة

وهي لا تصح من الكافر وإن كان مخاطباً بها معاقباً على تركها ولا يرد العتق والصدقة لأنهما بدليل آخر . (فتح الباري ١٨١)

وقال ابن رجب : فالأعمال إما أريد بها الأعمال الشرعية المفتقرة إلى النية ، فأما ما لا يفتقر على نية ، كالعادات من الأكل والشرب واللبس وغيرها ، أو مثل ردّ الأمانات والمضمونات كالودائع والغصب ، فلا يحتاج شيء من ذلك إلا نية ، فيخصّ هذا كلّ من عموم الأعمال المذكورة ها هنا . (جامع العلوم والحكم ٣٠١)

والنّيّات : جمع نية ، قال النووي رحمه الله : النية القصد ، وهي عزيمة القلب .

وقال البيضاوي: النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض من جلب نفع أو دفع ضرر حالاً أو مآلاً ، والشرع خصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لإبتغاء رضا الله وامتنال حكمه . (فتح الباري ١٩١) .

وهنا البيضاوي رحمه الله قال في تعريف النية بالإرادة لقوله تعالى : { مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ } آل عمران ١٥٢ ، وقال سبحانه : { مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ } الإسراء ١٨ وقال : { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }

وقد يعبر عنها في القرآن بلفظ (الابتغاء) ، كما في قوله تعالى : { إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى } الليل ٢٠ ، وقوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ } البقرة ٢٠٧ وقوله : { مَا تَتَفَقَّحُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ }

قوله : ((وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) ، قال ابن رجب رحمه الله : (إخباراً أنّه لا يحصل له من عمله إلا ما نواه ، فإن نوى خيراً حصل له خيرٌ ، وإن نوى شراً حصل له شرٌّ ، وليس هذا تكريراً ، محضاً للجملة الأولى ، فإنّ الجملة الأولى دلّت على أن صلاح العمل وفساده بحسب النية المقتضية لإيجاده ، والجملة الثانية دلّت على أن ثواب العمال على عمله بحسب نيّته الصالحة ، وأن عقابه عليه بحسب نيّته الفاسدة ، وقد تكون نيّته مباحةً فيكون العمل مباحاً ، فلا يحصل له به ثواب لا عقاب ، فالعمل في نفسه : صلاحه وفساده وإباحته بحسب النية الحاملة عليه المقتضية لوجوده - وثواب العامل وعقابه وسلامته بحسب نيّته التي بها صار العمل صالحاً أو فاسداً أو مباحاً) . (جامع العلوم والحكم ٦٥١) .

قال القرطبي رحمه الله : فيه تحقيق لاشتراط النية والإخلاص في الأعمال ، فجنح إلى أنها مؤكدة . (فتح الباري ٢٠١١) .

وقال ابن دقيق العيد : الجملة الثانية تقتضي أن من نوى شيئاً يحصل له - يعني إذا عمله بشرائطه - أو حال دون عمله له ما يعذر شرعاً بعدم عمله وكل ما لم ينو له يحصل له ، وقال ابن حجر رحمه الله : ومراده بقوله " ما لم ينو " أي لا خصوصاً ولا عموماً ، أما إذا لم ينو شيئاً مخصوصاً لكن كانت هناك نية عامة تشملها فهذا مما اختلفت فيه أنظار العلماء . ويتخرج عليه من المسائل ما لا يحصى . (فتح الباري ٢١١١) .

وقوله : ((فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) .

الهجرة هي : الترك ، والهجرة إلى الشيء : الانتقال إليه عن غيره . وفي الشرع : ترك ما نهى الله عنه . وقد وقعت في الإسلام على وجهين : الأول الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن كما في هجرتي الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة ، الثاني الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذلك بعد أن استقر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين . (فتح الباري ٢٣١١)

وقوله : (هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله) اتحد في الشرط والجزاء ، والأصل اختلافهما ، والمعنى من كانت هجرته إلى الله ورسوله نيّة وقصدًا ، فهجرته إلى الله ورسوله ثواباً وأجرًا ، (ابن رجب جامع العلوم والحكم ٧٢١١) .

ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأعمال بحسب النيّات ، وأن حظّ العامل من عمله نيّته من خير أو شر ، وهاتان الكلمتان جامعتان وقاعدتان كليّتان ، لا يخرج عنهما شيء ، ذكر بعد ذلك مثالا من أمثال الأعمال التي صورتها واحدة ، ويختلف صلاحها وفسادها باختلاف النيّات ، وكأنّه يقول : سائر الأعمال على حذو هذا المثال .

وقد قال ابن الحاج المالكي رحمه الله : (فالأصل الذي تتفرع عنه العبادات على أنواعها هو الإخلاص ، وذلك لا يكون إلا بالقلب ، فعلى الجوارح الظاهرة تبع للباطنة ، فإن استقام الباطن استقام الظاهر جبراً ، وإذا دخل الخلل الباطن دخل في الظاهر من باب أولى ، فعلى هذا ينبغي للمؤمن أن تكون همّته وكليّته في تخليص باطنه واستقامته ، إذ إن أصل الاستقامة منه تتفرّع وهو معدنها) . (المدخل ٧١١)

وعلى هذا يكون العمل الشرعي الذي ينتفع به صاحبه هو ما جمع بين صلاح الباطن بخلوص النية واستقامة الظاهر بسداد الأعمال .

ويكأنه ابن الحاج المالكي رحمه الله يمثل في دور القلب دور الملك والجوارح هم الجنود ، فهم مؤتمرون ومجبرون بما يأمرهم به ذلك الملك وهو القلب .

وقال ابن رجب : فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الهجرة تختلف باختلاف النيات والمقاصد بها ، فمن هاجر إلى دار الإسلام حباً لله ورسوله ، ورغبة تعلم دين الإسلام وإظهار دينه حيث كان يعجز عنه في دار الشرك ، فهذا هو المهاجر إلى الله ورسوله ، ولهذا المعنى اقتصر في جواب هذا الشرط على إعادته بلفظه ، لأن حصول ما نواه بهجرته نهاية المطلوب في الدنيا والآخرة . (جامع العلوم والحكم ١ / ٧٣)

قوله : ((ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) .

(دنيا) بضم الدال ، وحكى ابن قتيبة كسرها ، وهي فعلى من الدنو أي : القرب ، سميت بذلك لسبقها للآخرى . وقيل : سميت دنيا لدنوها إلى الزوال . واختلف في حقيقتها فقيل ما على الأرض من الهواء والجو ، وقيل كل المخلوقات من الجواهر والأعراض ، والأولى أولى . لكن يزداد فيه مما قبل قيام الساعة (فتح الباري ١ / ٢٣١) .

(يصيبها) أي يحصلها ؛ لأن تحصيلها كإصابة الغرض بالسهم بجامع حصول المقصود .

(أو امرأة) قيل التنصيص عليها من الخاص بعد العام للاهتمام به . وتعقبه النووي بأن لفظ دنيا نكرة وهي لا تعم في الإثبات فلا يلزم دخول المرأة فيها . وتعقب بكونها في سياق الشرط فتعم ، ونكتة الاهتمام الزيادة في التحذير ؛ لأن الافتتان بها أشد . (فتح الباري ١ / ٢٤١)

(فهجرته إلى ما هاجر إليه) يحتمل أن يكون ذكره بالضمير ليتناول ما ذكر من المرأة وغيرها ، وإنما أبرز الضمير في الجملة التي قبلها وهي المحذوفة لقصد الالتذاذ بذكر الله ورسوله وعظم شأنهما ، بخلاف الدنيا والمرأة فإن السياق يشعر بالحث على الإعراض عنهما . وقال الكرماني : يحتمل أن يكون قوله " إلى ما هاجر إليه " متعلقاً بالهجرة ، فيكون الخبر محذوفاً والتقدير قبيحة أو غير صحيحة

مثلا ، ويحتمل أن يكون خبر فهجرته والجملة خبر المبتدأ الذي هو " من كانت " ، انتهى . (فتح الباري ١ / ٢٥١)

فالنية هي محلها القلب والتلفظ بها بدعة ، فلا يجوز التلفظ بالنية في أي قرينة من القرب ، إلا في الحج والعمرة ، فله أن يسمي في تلبيته ما نواه من قران أو افراد أو تمتع ، فيقول : لبيك عمرة وحجاً ، أو لبيك حجاً ، أو لبيك عمرة ، لثبوت السنة في ذلك دون غيره .

والنية هي أمر عظيم تستلزم كل عمل خير كان أو شر ، فلا من استحضار النية التي هي مكانه القلب في كل عمل وأن تكون خالصة لله تعالى ولا يكون بها حظاً لأحد من خلقه دون رياء أو سمعة فهذه الأشياء يهدم العمل الذي تعبت من أجله وبذلت كامل جهدك وفي ثمرة العمل أنه غير مقبول ، يقول الإمام المبارك عبد الله بن المبارك رحمه الله : رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية . وكما جاء بالحديث الذي رواه أبي هريرة رضي الله عنه أن شقيقاً ، حدثه : أنه دخل المدينة ، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة ، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه ، وهو يحدث الناس ، فلما سكوت وخلا ، قلت : أنشدك بحق وحق لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلمته وعلمته ، فقال أبو هريرة : أفعل ، لأحدثتك حديثاً حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلمته ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة ، فمكث قليلاً ، ثم أفاق ، فقال : لأحدثتك حديثاً حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ، فمكث بذلك ، ثم أفاق ومسح وجهه قال : أفعل لأحدثتك بحديث حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيره ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة ، ثم مال خائراً على وجهه أسدنته طويلاً ، ثم أفاق ، فقال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى العباد ليقتضي بينهم ، وكل أمّة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل يقتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول للقاري : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى يا رب قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به أثناء الليل وأثناء النهار ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان قارئ ، فقد قيل ، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرّحم ، وأتصدق ؟ فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، فيقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جواد ، فقد قيل ذاك ، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله ، فيقال له : فيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[illegible]

قُتِلَتْ ؟ فيقول : أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ ، فَقَاتِلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ ، فيقولُ اللهُ : كَذَبْتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كَذَبْتَ ، ويقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ له : بل أردتَ أن يقالَ : فلانُ جريءٌ : فقد قيلَ ذلكَ ، ثمَّ ضربَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على رُكبتَيَّ ، فقالَ : يا أبا هُرَيْرَةَ ، أولئكُ الثلاثةُ أوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . (من صحيح ابن خزيمة ٢٤٨٢)

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري ، تركته وشركه. (٢٩٨٥)

قال يوسف بن الحسين الرازي : أعز شيء في الدنيا الإخلاص ، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي ، وكأنه ينبت في على لون آخر . (جامع العلوم والحكم ٤٣١)

فلا يصح اي عمل حتى يكون خالصاً لله سبحانه وتعالى وعلى هدي رسول الله كما قال الفضيل رحمه الله في قوله تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ، قال أخلصه وأصوبه .

وقال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً ، لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً وصواباً .

قال : والخالص إذا كان لله عزو جل ، والصواب إذا كان على السنة .

وقد دلّ الذي قاله الفضيل رحمه الله تعالى بقوله جلّ وعز : {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } {الكهف ١١٠}

snamalislam

الحديث الثانى :

عن عمر رضي الله عنه قال : ((بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذا طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى

وَأَمَّا الْفِرْعَوْنُ فَقَدْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا فَذُوقْ صَغِيرَ ذِقْنِكَ يَوْمَ يَكُونُ النُّجُومُ حَصِيرًا

[illegible]

عليه أثرُ السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله و تُقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتُحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني أماراتها ؟ أن تلد الأمة رببتها ، وأن ترى الحفاة العُراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)) رواه مسلم .

هذا الحديث مشتمل على بيان الإسلام والإيمان والإحسان ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في نهايته ((هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)) ، وقد جاء عن جماعة من أهل العلم بيان عظم شأن هذا الحديث ، قال القاضي عياض كما في شرح النووي على صحيح مسلم : ((وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة ، من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال ، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه متشعبة منه . (١٥٨/١) .

وقال النووي : ((واعلم أن هذا الحديث يجمع أنواعاً من العلوم والمعارف والآداب واللطائف ، بل هو أصل الإسلام ، كما حكيناه عن القاضي عياض)) .

وقال القرطبي : ((هذا الحديث يصلح أن يقال أم السنة ، لما تضمنته من جمل علم السنة)) . (فتح الباري ١٢٥١)

وقال ابن دقيق العيد في شرح الأربعين : ((فهو كالأمِّ للسنة ، كما سميت الفاتحة أم القرآن ، لما تضمنته من جمعها معاني القرآن)) .

وقال ابن رجب : ((وهو حديث عظيم يشتمل على شرح الدين كله ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في آخره : (هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) ، بعد أن شرح

درجة الإسلام ودرجة الإيمان ودرجة الإحسان ، فنجعل ذلك كله ديناً)) (جامع العلوم والحكم ١١ / ٩٧)

شرح الحديث :

هذا الحديث تفرد به مسلم عن البخاري بإخراجه ، فخرجه من طريق كَهَمَس عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ عن يحيى بن يَعْمَر ، قال : كان أَوَّل من قال في القدر بالبصرة معبداً الجُهَنِي ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحِمِيرِي حَاجِبِينَ - أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ؟ فوافق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما داخلا المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن ! إنه قد ظهر قِبَلَنَا ناسٌ يقرؤون القرآن ، ويتفكرون العلم (وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف) .

قال : إذا لقيت أولئك ، فأخبرهم أنني بريء منهم ، وأنهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً ، فأنفقه ، ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر .

ثم قال : حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (فذكر الحديث بطوله) .

ثم خرَّجه من طرق أخرى بعضها يرجع إلى عبد الله بن بُرَيْدَةَ ، وبعضها يرجع إلى يحيى بن يَعْمَر ، وذكر أن في بعض ألفاظها زيادة و نقصان . (جامع العلوم والحكم ١١ / ٥٣) .

وخرَّجه ابن حبان في ((صحيحه)) من طريق سليمان التيمي عن يحيى بن يَعْمَر . (برقم ١٧٣) .

ومسند الإمام أحمد (٣٦٧) : أبو داود (٤٦٩٥) ، والترمذي (٢٦١٠) والنسائي (٩٧٨) ، وابن ماجه (٦٣) ، وابن منده في الإيمان (١) ، (١٤) ، والطيالسي (ص : ٢٤) والأجري في الشريعة (ص : ١٨٨ - ١٨٩) ، وأبو يعلى (٢٤٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٦٩١٧ - ٧٠) ، وفي شعب الإيمان (٣٩٧٣)

(، والبغوي في شرح السنة (٢) ، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٣٦٣ — ٣٦٧) ، وعبد الله ابن أحمد في السنة (٩٠١) ، (٩٠٨) ، والبخاري في خلق أفعال العباد (١٩٠) ، وابن خزيمة (٢٥٠٤) .

وفي هذا الحديث فوائد جليّة قد لا أحصي جلّها ولكن أذكر بعضها :

١- أنَّ القول بنفي القدر بدعة قد ظهرت بالبصرة في عصر الصحابة وفي حياة عبد الله ابن عمر كما سبق في الحديث ، وكان وفاته رضي الله عنه (٧٣ هـ) .

٢- رجوع الناس إلى الصحابة وهم التابعين في معرفة حكم ما يقع من الأمور المُشكّلة على الناس ، سواء كان في العقائد أو غيرها ، وهذا واجب كل فرد من آحاد المسلمين أن يرجع في أمور إلي دينه إلى أهل العلم .

٣- أنه يستحب لمن يسافر إلى بلاد الحرمين للحج أو للعمرة أن يستغلّوا مناسبة هذه الرحلة للتفقه للدين والرجوع لمن يروونه أهل العلم الثقّات لكي يعلموا ما يشكّلوا عليهم من أمر دينهم ، وهذا ما حصل من يحيى بن يَعمُر وحميد بن عبد الرحمن الحميري ، وما كان من الثمرة الطيّبة أنهم قد تفقّهوا في دين الله سبحانه وتعالى ودحض هذه الشبهة ألا وهي نفي القدر .

وكما في صحيح مسلم ، عن يزيد الفقير قال : ((كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج ، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحجّ ، ثم نخرج على الناس ، قال : فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله يُحدّث القوم - جالس إلى سارية - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فإذا هو قد ذكر الجهنّمين ، قال : فقلت له : يا صاحب رسول الله ! ما هذا الذي تُحدّثون ؟ والله يقول (إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ) وقال (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) ، فما هذا الذي تقولون ؟ قال : فقال : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم ! قال : فهل سمعت بمقام محمد عليه السلام ، يعني الذي يبعثه فيه ؟ قلت : نعم ! قال : فإنّ مقام محمد صلى الله عليه وسلم المحمود الذي يُخرج الله به من يُخرج . قال ثمّ نعت وضع الصراط ومرّ الناس عليه ، قال : وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك . قال : غير أنّه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها ، قال : يعني فيخرجون كأنّهم عيدان السماسم ، قال : فرجعنا قلنا : ويحكم ! أتروّن الشيخ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فرجعنا ، فلا - والله ! - ما خرج منّا غير رجل واحد ، أو قال أبو نعيم)) (١٩١) .

فهؤلاء أناس جاؤوا حاجين بيت الله الحرام وقد كانوا عندهم فهم خاطئ ، وهو أن أصحاب الكبائر لا يخرجون من النار ، وحملوا الآيات التي وردت في الكفار على المسلمين .

قوله : ((بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذا طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثرُ السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه)) ، ثم سأل عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها ، وقال بعد ذلك : ((هذا جبريلُ أتاكم ليُعَلِّمَكُم دينكم)) .

فوائد جلّية :

١- جاء في صحيح البخاري (٥٠) ومسلم (٩) عن أبي هريرة قال : ((كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يومَ للناس)) ، وفي سنن أبي داود (٤٦٩٨) بإسناد صحيح عن أبي ذر وأبي هريرة قالا : ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهراني أصحابه ، فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتى يسأل ، فطلبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نجعل له مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه ، قال : فبنينا له دكاناً من طين ، فجلس عليه ، وكنا نجلس بجانبه)) ، وفي هذا دليل على أنه ينبغي للمعلم يكون على مكان مرتفع لكي يعرف وليراه الحاضرون جميعاً ، لا سيما إذا كان الجمع كثيراً ، فيتمكّن الجميع على الاستفادة منه .

٢- أن الملائكة تأتي إلى البشر على شكل البشر ، ومثل ذلك ما جاء في القرآن من مجيء جبريل إلى مريم في صورة بشر ، ومجيء الملائكة إلى إبراهيم ولوط في صورة البشر ، وقد قال الله عز وجل في خلق الملائكة : {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فاطر ١ ، وفي صحيح البخاري (٤٨٥٧) ، ومسلم (٢٨٠) أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل ولو ستمائة جناح ، ومثل الملائكة في المجيء على هيئة البشر : الجنُّ ، كما ثبت في صحيح البخاري (٢٣١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه في قصة الذي يأتي إليه ويحثو من الطعام ، وكما تأتي الجنُّ على هيئة البشر ، فإنها تأتي على هيئة الحيات كما في صحيح مسلم (٢٢٣٦) .

والملائكة والجنُّ وهم على هيئتهم يرون البشر من حيث لا يرونهم ، وقد قال الله عز وجل عن الجنِّ : (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) .

مفرداً قول الله عز وجل : { وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران ٨٥ ومن مجيء الإيمان مفرداً قول الله عز وجل : { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } المائدة ٥

وإنَّ ما أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أنَّ محمَّد رسول الله ، وهذه الشهادتان متلازمان لكل إنسي وجني من حين بعثته صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة والذي سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم وفلم يؤمن به فمأواه نار جهنم ، لحديث النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : ((والذي نفسي محمَّد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)) رواه مسلم (٢٤٠)

إنَّ شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّد رسول الله ، فهو عمل اللسان ، والاعتقاد بالفؤاد ، وأما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً ، فهي منقسمة إلى عمل بدني ، كالصلاة والصوم ، وأعمال مالي ، وهي إيتاء الزكاة والحج إن استطاع إليه سبيلاً .

وعلى هذا أنَّ جميع الواجبات الظاهرة داخلية في مسمى الإسلام . (جامع العلوم والحكم ٣٦١) .

ويدلُّ هذا القسم من الحديث أنَّ من أكمل الإتيان بمباني الإسلام الخمس صار مسلماً حقاً ، لحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : ((بني الإسلام على خمس)) وفي رواية أخرى ((فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ قال : نعم)) .

فشهادة أن لا إله إلا الله معناها أن لا معبود بحق إلا الله ، وهي كلمة الإخلاص تشتمل على ركنين ، نفي عام في أولها وهو (لا إله) والركن الثاني الإثبات الخاص وهو (إلا الله) ، ففي أولها نفي العبادة عن كل ما سوى الله ، قال الله تعالى : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات ٥٦ فالعبادة لا تستحق إلا الله تعالى الذي خلق هذه المعمورة إلا لحكمة واحدة وهي عبادته سبحانه .

" والعبادة في اللغة من الذلة يقال طريق معبد وبغير معبد أي مذل وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف . (تفسير ابن كثير ٢٥/١)

وقال ابن العربي (العبادة هي التذلل والخضوع للمعبود بما يكون من فعل يقصد به خدمته في أمره) (عارضة الأحوزي ٧١/١١)

قال شيخ الإسلام بن تيمية ((العبادة هي طاعة الله بامتنثال ما أمر الله على السنة الرسل . وقال أيضاً : العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)) (فتح المجيد ١٤/١) .

وقال القرطبي (وحقيقة العبادة : الطاعة بغاية الخضوع ، ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود) (التفسير ١٣٠/١١)

وقال ابن حجر العسقلاني ((المراد بالعبادة عمل الطاعات واجتناب المعاصي)) (فتح الباري (١٣٤/٢٤))

قال ابن القيم: "العبادة تجمع أصليين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع.

والعرب تقول: طريق مُعَبَّد، أي مذل، والتعبد: التذلل والخضوع؛ فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محباً خاضعاً". (مدارج السالكين (٨٥/١) .

وقال ابن القيم بتعريف جامع للعبادة :

وعبادة الرحمن غاية حبه *** مع ذلّ عابده هما قطبان
ومداره بالأمر - أمر رسوله - *** لا بالهوى والنفس والشيطان
من غير إشراك به شيئاً هما *** سبب النجاة فحبذا السبيان
لم ينج من غضب الله وبارّه *** إلا الذي قامت به الأصلا
والناس بعده مشرك بالله *** أو ذو ابتداع أو له الوصفان

فبهذا التوحيد أرسل كل رسول إلى قومه بهذه الكلمة ألا وهي (لا إله إلا الله) ، قال تعالى : {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } النحل ٣٦

قال ابن كثير : (وبعث الله في كل أمة أي في كل قرن وطائفة رسولا وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه ، أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فلم يزل الله تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذي أرسل إليهم نوح وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد صلى الله عليهم وسلم ، والذي طبقت دعوته الإنس والجن في

المشارك والمغارب وكلهم كما قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء ٢٥ . (تفسير ٧١٢/٢)

فإن دعوة الأنبياء كانت واحدة للأمم ، وهي عبادة الله وحده والنهي عن عبادة ما سواه ، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين ، وإن اختلفت شريعتهم قال تعالى : { لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً } .

قال تعالى : { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } ، وهو أن تعبدوه وحده دون ما سواه وهذا هو معنى (لا إله إلا الله) .

قال ابن القيم : (والنفي المحض ليس توحيداً . وكذلك الإثبات بدون النفي . فلا يكون إلا متضمناً للنفي والإثبات . وهو هذا حقيقة التوحيد . (فتح المجيد ١٨١)

وقوله تعالى : (وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) ، فالطاغوت منشق من الطغيان وهو مجاوزة الحد . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الطاغوت شيطان .

وقال مالك : الطاغوت كل ما عبد من دون الله

وقال ابن القيم رحمه الله : (الطاغوت : كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله ، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته . (إعلام الموقعين ٥٠/١)

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : (الطاغوت عام : فكل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت ، والطواغيت كثيرة ورعوسهم خمسة :

الأول : الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله ، والدليل قوله تعالى : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } يس ٦٠

الثاني : الحاكم الجائر المغير لأحكام الله تعالى ، والدليل قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى

الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا
{النساء ٦٠}

الثالث: الذي يحكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى: {وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} {المائدة ٤٤}

الرابع: الذي يدّعي علم الغيب من دون الله، والدليل قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} {٢٦} إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} {٢٧} ، وقال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} {الأنعام ٥٩}

الخامس: الذي يُعبد من دون الله وهو راضٍ بالعبادة، والدليل قوله تعالى: {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} {الأنبياء ٢٩}

(الأصول الثلاثة وانظر مجموعة التوحيد (٢٦٠)).

وقال الشيخ محمد حامد الفقي: (الذي يستخلص من كلام السلف رضي الله عنهم: أن الطاغوت كل ما صَرَفَ العبد وصدّه عن عبادة الله وإخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله، سواء في ذلك الشيطان من الجن والشيطان ومن الإنس والأشجار والأحجار وغيرها. ويدخل في ذلك بلا شك: الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم به في الدماء والفروج والأموال، وليبطل بها شرائع الله من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميها بنفوذها ومنفذيتها، والقوانين نفسها طواغيت، وواضعوها ومرجوها طواغيت، وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشري ليصرف عن الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم إما قصداً أو عن غير قصد من واضعه، فهو طاغوت). (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (٢٧٨)).

وقال عبد القادر عبد العزيز: (فالقول الجامع في معنى الطاغوت بحسب الظاهر أنه كل ما يُعبد من دون الله، وأما على التفصيل فقد ورد في الكتاب والسنة النص على نوعين من الطواغيت: طاغوت العبادة وطاغوت الحكم. (الجامع في طلب العلم (٦٦٩/٢)).

٤) فطاغوت العبادة؛ ورد في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَّبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا} [الزمر: ١٧]، وهو كل ما عُبد من دون الله من شيطان، أو

إنسان حي أو ميت، أو حيوان، أو جماد من شجر أو حجر، أو كوكب من الكواكب، سواء عُبدَ بتقديم القرابين له أو بدعائه أو بالصلاة له من دون الله، أو بطاعته وإتباعه فيما يخالف شرع الله. ويُقَيَّد "ما عُبد من دون الله" بلفظ "وهو راضٍ بذلك"، ليخرج منه مثل عيسى بن مريم عليه السلام أو غيره من الأنبياء والملائكة والصالحين فهؤلاء عُبدوا من دون الله وهم لا يرضون بذلك فلا يُسمى أحدٌ منهم طاغوتا.

قال ابن تيمية رحمه الله: "وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ} {٤٠} قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} {٤١} (سبا) يعني أن الملائكة لم تأمرهم بذلك، وإنما أمرتهم بذلك الجن، ليكونوا عابدين للشياطين التي تتمثل لهم، كما يكون للأصنام شياطين، وكما تنزل الشياطين على بعض من يعبد الكواكب ويرصدها، حتى تنزل عليه صورة فتخاطبه، وهو شيطان من الشياطين. ولهذا قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} {٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} {٦١} [يس:]، وقال: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} {الكهف ٥٠} مجموع الفتاوى (٤/ ١٣٥ - ١٣٦).

ب) وطاغوت الحكم؛ ورد في قوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ} [النساء: ٦٠]، وهو كل ما تُحوِكِم إليه من دون الله من دستور وضعي أو قانون وضعي أو حاكم بغير ما أنزل الله سواء كان سلطاناً أو قاضياً أو غيرهما).

فيتبين من كل هذا أن أمريكا طاغوت ومجلس الأمن طاغوت والأمم المتحدة طاغوت والشرعية الدولية طاغوت والحكومات المعاصرة كما مر طواغيت ففي هذه الآية يبين سبحانه أن الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت وأنهم أولياء الشيطان، فمن قاتل تحت راية أمريكا، فهو كافر ومن قاتل تحت راية بريطانيا فهو كافر، ومن نقل جنودهم فهو كافر، ومن فتح المطارات لهم فهو كافر، ومن حماهم فهو كافر، ومن نقل الذخائر لهم على الشاحنات فهو كافر... الخ، فمن قاتل معهم

فهو معهم في هذه الأوصاف سواء كان بيده أو لسانه أو رأيه أو فتواه أو جريدته أو منصبه أو... الخ.

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وأسنيتكم) والحديث عن أنس بن مالك ، وقال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لَيَدْخُلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ الْجَنَّةِ صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ وَالرَّامِيَ بِهِ . (قسم من حديث ، والحديث عند الترمذي (حسن صحيح ١٦٣٧)

فدلت الآية أن من أعان هذا التحالف في حربهم على المسلمين بأي نوع من أنواع الإعانة فهو من أولياء الشيطان الكافرين.

يقول عبد القادر عبد العزيز بعد ذكره لهذه الآية : (فكل من قاتل دفاعاً عن حاكم كافر أو دستور أو قانون كافر، كما يفعله أنصار الحكام المرتدين فقد قاتل في سبيل الطاغوت، وكل من قاتل في سبيل الطاغوت فهو كافر، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}، ويدخل في هذا: القتال بالقول أو الفعل كما نقلناه عن ابن تيمية.

وتأمل قوله تعالى: {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ}، فإنه مما يبين لك أن الطاغوت على الحقيقة هو الشيطان الداعي إلى كل كفر، وأن من يقاتل في سبيل الطاغوت فهو إنما يقاتل في سبيل الشيطان على الحقيقة، وهذا أيضاً من باب توكيد كفرهم فإن أولياء الشيطان هم الكافرون، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ} [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٢٧]

(الجامع في طلب العلم (٢/٦٧٨) ..)
فهذا من أظهر الأدلة على كفر أنصار الحكام المرتدين؛ بالقول كبعض علماء السوء والإعلاميين، وبالفعل كالجنود على اختلاف أصنافهم، أنهم يقاتلون في سبيل الطاغوت، ومن قاتل في سبيله فهو كافر، ولا يلزم للحكم بكفر كل منهم أن يباشر القتال فعلاً، أو أن يقع قتال، بل كل من كان مُعداً بواسطة هؤلاء الحكام للقتال دفاعاً

عنهم وعن أنظمة حكمهم الكفرية التي هي سبيل الطاغوت فهو كافر. وإذا كان الله قد حكم بكفر من يتحاكم إلى الطاغوت فكيف بمن يقاتل من دونه وفي سبيله؟ .

وما أنك تنطق بـ (لا إله إلا الله) فلا بد أن تكون أن تعبد الله وحده وتكفر بما سواه من هذه الطواغيت المعاصرة اليوم .

وليس التلُّظ بالشهادتين يكون غاية التوحيد دون العلم ، واليقين ، وإخلاص وصدق ، وإن كان التلُّظ بالشهادتين يكون غاية التوحيد لكن أبي بن سلول من الموحدين !!

قال القرطبي في المفهم على صحيح مسلم : باب لا يكفي مجرد التلُّظ بالشهادتين ، بل لا بدَّ من استيقان القلب — هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة ، القائلين بأن التلُّظ بالشهادتين كاف في الإيمان . وأحاديث هذا الباب تدل على فساده . بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها . ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق ، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح. وهو باطل قطعاً . (فتح المجيد ١١٣٥)

وليس التوحيد بأن يعتقد المرء أن معنى (الإله) المخترع أو الصانع ، بل (الإله) هو المألوه المعبود الذي يستحق العبادة .

ومن يعتقد أن الله هو خالق كل شيء ويقول عن نفسه موحدًا وهو يعبد غيره ويتحاكم لغيره ويعادي أنصار الرحمن ويوالي أنصار الشيطان ، وإن قلت له هذا كفرٌ وردّة عن الدين الله سبحانه وتعالى ، تراه يتججّع ويقول بلسان حاله (أنا لا أقول عنهم أنهم هم خلقوني أو هم المدبرون لهذه الحياة ، ولو قلت ذلك لكن شركاً) ، فإن هذا الكلام من جنس كلام المشركين وهذا لقول الله عز وجل : {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ

{يونس ٣١}

وقال : {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} يوسف ١٠٦ ، وقال : {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} {٨٦} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} {٨٧} قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {٨٨} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} {٨٩} . (المؤمنون) .

بل (الإله) هو كما قاله شيخ الإسلام بن تيمية : هو المعبود المطاع ، فإن الإله هو المألوه ، والمألوه : هو الذي يستحق أن يعبد ، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف

به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع .

وقال رحمه الله : فإنَّ الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهُ القلوب بحبِّها ، وتخضع له وتذلُّ له وتخافه وترجوه ، وتنيب إليه شداًئدها ، وتدعوه في مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا لله وحده ، ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أصدق الكلام ، وكان أهلها أهل الله وحزبه ، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته ، فإذا صحت صحَّ بها كل مسألة وحالٍ وذوق ، وإذا لم يصحَّها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله . (فتح المجيد ٥٥١١) .

وأما الحديث الذي هو عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي يقول به رسول الله صلى الله عليه وسلم من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له — أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ، الحديث في الصحيحين .

فهنا ليس الدليل على التلَّفظ بها فحسب دون أن يعرف معناها ، أو يفعل مقتضاها ، فيجب عليه إن تكلم بها أن يكون دارياً بمعناها وفاعلاً بمقتضاها باطناً وظاهراً ، فلا بدَّ للشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها ، كما قال تعالى : { فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } (محمد ١٩) وقوله : { إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } الزخرف ٨٦

أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه : من البراءة من الشرك ، وإخلاص القول والعمل — قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح — فغير نافع بالإجماع (فتح المجيد ٥٢١١) .

وأما قوله ((وأن محمدٌ رسول الله)) وفي بعض الأحاديث مثل حديث عبادة ((وأن محمداً عبده ورسوله)) ، وأما التي (الواو) التي تكون بين الشهادتين فهو حرف عطف ، وهنا تكون معطوف على ما قبله ، ولا يحصل للمرء الدخول بالإسلام إلا بالتلفظ بهم أولاً ، وليس للمسلم أن يقول الشهادة الأولى دون الشهادة الثانية ، ولا الثانية دون الأولى فهما متلازمتان ، ولا يقبل للعبد أي عمل كان كبير أو صغير حتى يكون على شرع النبي صلى الله عليه وسلم ، أي إن عمل عملاً على غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم فهو مردود لا محالة كما جاء في الحديث (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو ردٌّ) ، لأنَّ من ابتدع بدعة ليس لها أصل في الشرع فهي مردودة ، وصاحبها مستحق للوعيد فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((من

أحدث فيها حَدَّثًا أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ((البخاري ١٨٧٠ — ومسلم ١٣٦٦).

وقال تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } ، وهذه الآية الكريمة تردُّ على كل من يدَّعي حبَّ الله عزَّ وجل ، كما قال ابن كثير : (هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر ، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ولهذا قال : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) أي : يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه ، وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض الحكماء العلماء : ليس الشأن أن تحب ، إنما الشأن أن تُحَبَّ ، وقال الحسن البصري وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية ، فقال : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) . (التفسير ٣٣١١)

وقال الحسن وابن جريج : نزلت في قوم من أهل الكتاب قالوا : نحن الذين نحب ربنا . وروي أن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، والله إنا لنحب ربنا ؛ فأُنزل الله عز وجل : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني . (التفسير للقرطبي ٥٨١١).

قال محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي تفسيره للآية : ((صرح تعالى في هذه الآية الكريمة : أن اتباع نبيه موجب لمحبهته جل وعلا ذلك المتبع ، وذلك يدل على أن طاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - هي عين طاعته تعالى ، وصرح بهذا المدلول في قوله تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وقال تعالى : وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا .

يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - هي اتباعه صلى الله عليه وسلم ، فالذي يخالفه ويدعي أنه يحبه فهو كاذب مفتر ؛ إذ لو كان محباً له لأطاعه ، ومن المعلوم عند العامة أن المحبة تستجلب الطاعة ، ومنه قول الشاعر :

لو كان حبك صادقاً لأطعته *** إن المحب لمن يحب مطيع (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)

والإعراض عن اتباع السنة يدلُّ ذلك عن الإعراض أوترك طريق النبي صلى الله عليه وسلم فهو معرض عنه ، روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي

الله عنه ، قصّة الرهط الثلاثة الذين قال أحدهم : أمّا أنا فأتّأ أصليّ الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : أنتم الذي قلتم لهم كذا وكذا ؟ أمّا والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنّي أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي ((.

قال الحافظ ابن حجر : ((المراد بالسنة الطريقة لا التي تقابل الفرض ، والرغبة عن الشيء : الإعراض عنه إلى غيره ، والمراد : من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس منّي)) (فتح الباري ١٩ / ١٠٤ - ١٠٥) .

فالعبادات فما كان منها خارج عن حكم الله ورسوله بالكلّية ، فهو مردود على عامله ، وعامله يدخل تحت قوله تعالى : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } فمن تقرب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قريبة إلى الله ، فعمله باطل مردود عليه ، وهو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية ، وهذا كمن تقرب إلى الله تعالى بسماع الملاهي ، أو الرقص ، أو بكشف الراس من غير الإحرام ، ، وما أشبه ذلك من المحدثات التي لم يشرع الله ورسوله والتقرب بها بالكلّية ، وليس ما كان قربة في عبادة يكون في غيرها مطلقاً ، فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً قائماً في الشمس ، فسأل عنه ، فقيل إنّه نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ويصوم ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقعد ويستظل ويتمّ صومه . (جامع العلوم والحكم ٨٢١) .

ومما يجب على المسلمين هو محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل محبوب من الخلق ، وأن يطاع في كلّ ما يأمر به ، ويُنتهى عن كلّ ما نهى عنه ، وأن تُصدّق أخباره كلّها سواء كانت ماضية أو مستقبلّة أو موجودة ، وهي غير مشاهدة ولا معاينة ، وأن يعبد الله طيقاً لما جاء به من الحق والهدى .

فكلّ عمل يعمل المرء فيجب أن يكون خالصاً لله عز وجل ومطابقاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلّ عمل في الإسلام لم يعمل رسول الله والخلفاء الراشدين من بعده فهو فعل بدعة وهو محدث لها ، وهو غير تابع إلى هدي رسول الله ، أو أنّهم بنقصان الرسالة كما قال الإمام مالك رحمه الله .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم في بعض أحاديث ((عبده ورسوله)) - فالعبد : هو المملوك العابد ، أي أنه مملوك لله تعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم له أعلى مراتب العبد ، والعبودية الخاصة والرسالة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق

في هاتين الصفتين الشريفتين ، وأما الربوبية والإلهية : فهما حق لله تعالى لا يشركه في شيء منهما ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

وعندما جيء في لفظ في بعض الأحاديث أنه عبده ورسوله فهو دفعا للإفراط والتفريط ، فإن كثيراً ممن يدّعي أنه من أمته أفرط بالغلو قولاً وفعلًا ، وفرط بترك متابعتة ، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به ، وتعسف في تأويل أخباره وأحكامه ، بصرفها عن مدلولها ، والصدوف عن الانقياد لها مع إطراحها ، فإن شهادة أن محمداً رسول الله : تقتضي الإيمان به ، وتصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانتفاء عما نهى عنه وزجر ، وأن يعظم أمره ونهيه ، ولا يُقدّم عليه قول أحد كائناً من كان . والواقع اليوم وقبله – ممن ينتسب إلى العلم من القضاة والمفتين – خلاف ذلك ، والله المستعان . (فتح المجيد ٥٧١) .

قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة : (وفيه أن العمل وإن وافق نية حسنة لم يصح إلا إذا وقع على وفق الشرع) . (فتح الباري ١٧١٠)

وفي سنن الدارمي أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقف على أناس في المسجد متحلقين وبأيديهم حصى ، يقول أحدهم : كبروا مائة ، فيكبرون مائة ، فيقول : هَلُّوا مائة ، فيهللون مائة ، ويقول : سَبِّحُوا مائة ، فيسبحون مائة ، فقال : ((ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟ قالوا : يا أبا عبد الرحمن ! حصى نعدُّ به التكبير والتهليل والتسبيح ، قال : فعداً سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء ، ويحكم يا أمة محمد ! ما أسرع هلكتكم ! هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون ، وهذه ثيابه لم تبَلْ ، وأنيته لم تنكسر ، والذي نفسي بيده ! إنكم لعلى ملة أهدى من ملة محمد صلى الله عليه وسلم أو مفتتحو باب ضلالة ؟! قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ! ما أردنا إلا الخير ، قال وكم من مريد للخير لن يصيبه)) (٦٨١-٦٩) .

وإن كان العمل خالصاً فيجب أن يكون على طريقة المحمّدية أي على طريق النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلّ عمل يُتقَرَّب به إلى الله لا بدّ أن يكون خالصاً له مطابقاً لهدي رسول الله ، فإذا فقد الإخلاص لم يقبل العمل ، وإذا فقد الاتّباع ردّ العمل . قال الفضيل رحمه الله في قوله تعالى : (لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ، قال أخلصه وأصوبه .

وقال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً ، لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً وصواباً .

قال : والخالص إذا كان لله عز وجل ، والصواب إذا كان على السنة .

أما بالنسبة إلى الأركان الأخرى من الصلاة والصيام والزكاة والحج فإن شاء الله تعالى سوف يأتي شرحها من حديث ابن عمر ((بني الإسلام على خمس)).

قوله : ((قال صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدّقه)) ، فهنا وجه التّعجب أن الغالب على السائل كونه غير عالم بالجواب ، فهو يسأل ليصل إلى الجواب ، ومثله لا يقول للمسئول إذا أجابه : صدّقت ، لأن السائل إذا صدّق المسئول دلّ على أن عنده جواباً من قبل ، ولهذا تعجّب الصحابة من هذا التصديق من هذا السائل الغريب .

قال النووي : سبب تعجبهم أن هذا خلاف عادة السائل الجاهل ، إنما كلام خبير بالمسؤول عنه ، ولم يكن ذلك في الوقت من يعلم هذا غير النبي صلى الله عليه وسلم . (صحيح مسلم ١٦١/٢)

قوله : ((قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراه)) .

فوائد جلیّة :

١- هذا جواب مشتمل على أركان الإيمان الستة ، وأول الأركان الإيمان بالله تعالى ، وهو أساس للإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، ولهذا أُضيفَ إليه الملائكة والكتب والرسل ، ومن لم يؤمن بالله لا يؤمن ببقية الأركان ، ومن يؤمن بالله ولا يؤمن بالأركان فلا يكون مؤمناً حتى أن يؤمن بالأركان الستة ، والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده وربوبيّته وألوهيّته وأسمائه وصفاته ، وأنه سبحانه وتعالى متّصف بكلّ كمال يليق به ، منزّه عن كلّ نقص ، فيجب توحيده برربوبيّته وألوهيّته وأسمائه وصفاته.

وتوحيده بربوبيته الإقرار بأنه واحد في أفعاله ، لا شريك له فيها ، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، وتدبير الأمور والنصْرُف في الكون ، وغير ذلك مما يتعلّق بربوبيته .

وتوحيد الألوهية توحيدته بأفعال العباد ، كالدعاء والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والدُّبْح والنَّذْر ، وغيرها من أنواع العبادة التي يجب إفراده بها ، فلا يصرف منها شيء لغيره ، ولو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلأً ، فضلاً عَمَّن سواهما .

وأما توحيد الأسماء والصفات ، فهو إثبات كل ما أثبتته الله لنفسه وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم من أسماء والصفات على وجه يليق بكماله وجلاله ، دون تكليف أو تمثيل ، ودون تحريف أو تأويل أو تعطيل ، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به ، كما قال الله عز وجل : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } ، فجمع في هذه الآية بين الإثبات والتنزيه ، فالإثبات في قوله : { وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } ، والتنزيه في قوله : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } ، فله سبحانه وتعالى سمع لا كالأسماع ، وبصر لا كالأبصار ، وهكذا يقال في كل ما ثبت لله من الأسماء والصفات .

معنى الكلمات الآتية :

التحريف : أي بدون تغيير ألفاظ أسماء الله الحسنى وصفاته العليا أو تغيير معانيها إلى معانٍ باطلة لا يدل عليها الكتاب والسنة .

التعطيل : نفي أسماء الله تعالى وصفاته وترك عبادة الله أو الشرك معه وتعطيل المخلوقات من خلقها جلّ وعلا كتعطيل الفلاسفة الذي قالوا بقدم هذه المخلوقات وزعموا أنها تتصرف بطبيعتها وأول من ابتدع التعطيل في دين الله الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان حيث تنتسب إليه الجهميّة ، وقيل إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سميعان وأخذها أبان من طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم وانظر : ((الفتوى الحموية)) (ص ٩٥) و ((لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية)) (٢٣١)

التكليف : أن يقال بأن الصفة على هيئة كذا وكيفية معينة .

التمثيل : التشبيه بين الخالق والمخلوق

التأويل : التأويل في التنزيل الحميد الحقيقية التي يؤول إليها الخطاب كما في قوله تعالى : { ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } {الكهف ٨٢} ويستعمل عند قدماء المفسرين كابن جرير الطبري بمعنى ((التفسير)) فيقال : تأويل جاء في قوله تعالى أي : تفسيره مثل هذا التأويل يعلمه من يعلم التفسير ، وأما التأويل المنفي الذي نريده هنا ، والذي يرده أهل السنة والجماعة فهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح كتأويل من أول ((الاستواء)) بمعنى : الاستيلاء ونحوه ، وتأويل ((اليد)) بالقدرة ، وتأويل الرؤية وغير ذلك ، فهذا عند مذهب السلف الأمة باطل لا حقيقة له بل هو من التعطيل لأن المؤول يشبه أولا ثم يلجأ إلى التأويل وانظر لبسط ذلك ((درء تعارض العقل والنقل (٣٨١ \ ٥))) و ((الفتوى

الحموية (ص ١٠٥ - ١٠٧) و ((ومختصر الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة (٥٢١١)))

ومن الناس من يلحد في أسماء الله وصفاته ، والإلحاد في أسماء والصفات الميل بها عن الحق الثابت إلى الشرك والكفر والتعطيل وله أقسام خمسة :

- تسمية الله بما لا يليق بجلاله وعظمته تبارك وتعالى
- تسمية بعض المخلوقات ببعض ما سمى الله به نفسه
- وصفه عز وجل بما يتنزه ويتقدس عنه
- تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها وزعم أنها ألفاظ مجردة لا معاني لها
- تشبيه صفات الله تبارك وتعالى بصفات الخلق . (مختصر الصواعق (١١٠/٢))

قال تعالى : { فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } النحل ٧٤ ، واعلم أن كل ما وصف به المخلوق من كمال فالخالق أولى به وكل ما نزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولى بالتنزه لقوله تعالى : { لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } . (الكواشف الجلية عن معاني الواسطية)

والنسبة بين أنواع التوحيد الثلاثة هذه أن يقال : إن التوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات مستلزمان لتوحيد الألوهية ، وتوحيد الألوهية متضمن لهما ، والمعنى أن من أقر بالألوهية فإنه يكون مقراً بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، لأن من أقر بأن الله هو المعبود وحده فخصه بالعبادة ولم يجعل له شريكاً فيها ، لا يكون منكراً أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت ، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العلى .

وأما من أقر بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، فإنه يلزمه أن يُقر بتوحيد الألوهية ، وقد أقر الكفار الذين بُعث فيهم رسول الله صلى الله عليه بتوحيد الربوبية ، فلم يدخلهم هذا الإقرار في الإسلام ، بل قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى يعبدوا الله وحده لا شريك له ، ولهذا يأتي كثيراً في القرآن توحيد الربوبية الذي أقر به الكفار ، لإلزامهم بالإقرار بتوحيد الألوهية ، ومن أمثلة ذلك قول الله عز وجل : أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَائِقَ دَاتٍ بِهَجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ { ٦٠ } أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَلَيْسَ اللَّهُ

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {٦١} أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ {٦٢} أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {٦٣} أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {٦٤} النمل .

ففي كل آية من هذه الآيات تقرير توحيد الربوبية للإلزام بتوحيد الألوهية ، فيقول في كل آية من هذه الآيات الخمس عقب تقرير توحيد الربوبية : { أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ } ، والمعنى أن من تفرد بهذه الأفعال التي هي من أفعال الله وحده ، يجب أن يخص بالعبادة وحده ، لأن من اختص بالخلق والإيجاد وغيرها من أفعال الله يجب أن يخص بالعبادة وحده ، وكيف يُعقل أن تكون المخلوقات التي كانت عَدَمًا ، وقد اوجدها الله ، كيف يُعقل أن يكون لها نصيب من العبادة وهي مخلوقة لله ، وقد قال الله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ } الأعراف ١٩٤

٢- الإيمان بالملائكة هو الإيمان بأنهم خلق من خلق الله ، خلقوا من نور ، كما في صحيح مسلم (٢٩٩٦) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ) ، وهم ذو أجنحة كما قال تعالى : { الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } فاطر ١ ، وجبريل له ستُمائة جناح ، كما ثبت في البخاري (٣٢٣٢) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جبريل ، له ستُمائة جناح ، وهم خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله جلَّ و علا ، ويدلُّ لذلك أن البيت المعمور - وهو في السماء السابعة - يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، رواه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (٢٥٠) وروى مسلم في صحيحه (٢٨٤٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يُوْتَى بِهِنَّ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُونَهَا) .

والملائكة منهم الموكّلون بالوحي ، والموكّلون بالقطر ، والموكّلون بالموت ، والموكّلون بالأرحام ، والموكّلون بالجنة ، والموكّلون بالنار ، والموكّلون بغير ذلك ، وكلّهم مستسلمون منقادون لأمر الله ، { لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } التحريم ٦ ، وقد سمّي منهم في الكتاب والسنة جبريل و ميكائيل وإسرافيل ومالك ومنكر ونكير ، والواجب الإيمان بمن سمّي منهم ومن لم يسم ، والواجب

أيضاً الإيمان والتصديق بكل ما جاء في الكتاب العزيز وصحّت به السنة من أخبار عن الملائكة .

٣- الإيمان بالكتب التصديق والإقرار بكل كتاب أنزله الله على رسول من رسله ، واعتقاد أنها حق ، وأنها منزلة غير مخلوقة ، وأنها مشتملة على ما فيه سعادة من أنزلت إليهم ، وأن من أخذ بها سلم وظفر ، ومن أعرض عنها خاب وخسر ، ومن هذه الكتب ما سمّي في القرآن ، ومنها مل لم يُسم ، والذي سمّي منها في القرآن التوراة والإنجيل والزبور وصُحف إبراهيم وموسى ، وقد جاء ذكر صُحف إبراهيم وموسى في موضعين من القرآن ، قال تعالى : { أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى {النجم ٣٦ وقوله : { صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى {الأعلى ١٩ ، وزبور داود جاء في القرآن في موضعين قال تعالى : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا {النساء ١٦٣

وقوله : { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا {الإسراء ٥٥

وأما التوراة والإنجيل فقد جاء ذكرهما في كثير من سور القرآن ، وأكثرهما ذكراً للتوراة ، فلم يُذكر في القرآن رسول مثل ما ذكر موسى ، ولم يُذكر فيه كتاب مثل ما ذكر كتاب موسى .

ومما يمتاز به القرآن على غيره من الكتب السابقة أنه يجب الإيمان به تفصيلاً ، فتصديق أخباره ، وتُمتثل أوامره ، وتجتنب وأهيه ، ويُتعبّد الله طبقاً لما جاء فيه وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه المعجزة الخالدة التي تُحدي أهل الفصاحة والبلاغة على أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا ولن يستطيعوا ، كما قال الله تعالى : { قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً {الإسراء ٨٨

ويمتاز أيضاً بتكفّل الله بحفظه وسلامته من التحريف ، قال جلّ ثناءه : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {الحجر ٩

وكونه مهيمناً على الكتب السابقة ، قال الله عز وجل : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ {المائدة ٤٨ ، فهذه الآية تدلّ على أن القرآن مهين على الكتب السابقة ، وسنة رسول الله شارحة للكتاب وموضحة له ، كما قال الله جلّ وعز : { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ

وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {النحل ٦٤} ، ولا بدّ من العمل بما جاء في الكتب والسنة ، ومن كفر بالسنة فقد كفر بالقرآن ، والله عزّ وجل فرض الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وكان بيانها يحصل بالسنة .

فالقرآن هو كلام الله تعالى أنزله على نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، والكتب التي ذكرت كلها كلام الله ، فالحمد لله تعالى متّصف بصفة الكلام أزلاً وأبداً ، وهو متكلم بلا ابتداء ، ويتكلم بلا انتهاء ، لأنّه سبحانه وتعالى لا بداية له ولا نهاية له ، فلا بداية لكلامه ولا نهاية له ، وصفة الكلام صفة ذاتية فعلية ، فكلامه متعلّق بمشيئته ، يتكلم إذا شاء ، كيف شاء ، وقد كلّم موسى في زمانه ، وكلّم نبيّنا محمّداً صلى الله عليه وسلّم ليلة المعراج ، وكلّم أهل الجنة إذا دخلوا الجنة .

وأنّ كلامه منه ، فلا حصر له ، بخلاف كلام المخلوق ، فإن له بداية وله نهاية ، فيكون كلامه محصوراً ، قال الله جلّ جلاله : {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً {الكهف ١٠٩}

وقوله : {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {لقمان ٢٧} .

٤ - الإيمان بالرّسل التصديق والإقرار بأن الله اصطفى من البشر رُسلًا وأنبياء يهدون الناس إلى الحق ، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور ، قال الله عزّ وجل : {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ {الحج ٧٥}

والجنّ ليس فيهم رُسل ، بل فيهم النذر ، كما قال الله تعالى : إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ {٢٩} قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ {٣٠} يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ {٣١} وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٣٢} ، فلم يذكرنا رسلًا منهم ، ولا كتباً أنزلت عليهم ، وإنّما ذكرنا الكتابين المنزلين على موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، ولم يأت ذكر الإنجيل مع أنّه منزل من بعد موسى ، وذلك أن كثيراً من الأحكام في الإنجيل قد جاءت في التوراة .

والرّسل هم المكلفون بإبلاغ شرائع أنزلت عليهم ، كما قال تعالى : {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ {الحديد ٢٥}

والرُّسُل منهم من قُصَّ في القرآن ، ومنهم من لم يقصص كما قال الله تعالى :
{وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا} النساء ١٦٤

وقوله : {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ} غافر ٧٨

والذين قُصُّوا في القرآن خمسة وعشرون ، ومنهم ثمانية عشر جاء ذكرهم في سورة
الأنعام في قوله تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن
نِّسَاءِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {٨٣} وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن
قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ {٨٤} وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّن الصَّالِحِينَ {٨٥} وَإِسْمَاعِيلَ
وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ {٨٦}

والسبعة الباقون : آدم ، وإدريس ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وذو الكفل
ومحمد صلوات الله وسلامه وبركاته عليهم أجمعين

ورسل الله وأنبياءه من الرِّجال دون لنساء ، لقوله تعالى : {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا
رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ} المائدة ٧٥

٥- الإيمان باليوم الآخر التصديق والإقرار بكلِّ ما جاء في الكتاب والسنة عن كلِّ
ما يكون بعد الموت ، وقد جعل الله الدُّور دارين : دار الدُّنيا ودار الآخرة ، والحدُّ
الفاصل بين هاتين الدَّرتين الموت والنفخ في الصور الذي يحصل به موت من كان
حيًّا في آخر الدنيا ، وكل من مات قامت قيامته وانتقل من دار العمل غلى دار
الجزاء ، والحياة بعد الموت ، والحياة البرزخيَّة لا يعلم حقيقتها إلا الله ، وهي تابعة
للحياة بعد الموت ، لأنَّ في كل منهما الجزاء على الأعمال .

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بفتنة القبر ونعيمه وعذابه ، وقد وردت الأحاديث
في فتنة القبر والسؤال ونعيمه وعذابه ومنها :

عن فاطمة بنت المنذر ، عن أسماء ، عن عائشة في قصَّة صلاة الكسوف ، وفيه
أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيتُه في مقامي
، حتى الجنة والنار ، فأوحى إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريباً - لا أدري أي
ذلك قالت أسماء - من فتنة مسيح الدجال ، يقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما

المؤمن أو الموقن — لا أدري بأيّهما قالت أسماء — فيقول : هو محمدٌ هو رسول الله ، جاءنا بالبينات والهدى ، فأجبنا وأتبعنا ، وهو محمد ثلاثاً ، فيقال : نعم صالحاً ، قد علمنا إن كنت لموقناً له ، وأما المنافق أو المرتاب — لا أدري أيّ ذلك قالت أسماء — فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلتُه)) (صحيح البخاري (٨٦) .

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد حسن عن البراء بن عازب رضي الله عنه في الحديث الطويل ، وفيه ((فيأتيه — أي المؤمن — ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك؟ فيقول ربي الله ، فيقولان له : ما دينك؟ فيقول ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم))

وفيه أيضاً ((ويأتيه — أي الكافر — ملكان فيجلسان ، فيقولان له من ربك؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ! فيقولان له : ما دينك؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ! فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول : هاه هاه لا أدري !))

وفيه قوله في المؤمن ((فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويُفسح له في قبره مدّ بصره))

وقوله في الكافر : ((فأفرشوا له من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرّها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه)) (١٨٥٣٤) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في البخاري من حديث ابو هريرة رضي الله عنه يدعوا : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال . (١٣٧٧)

وهذه الامور الثلاثة التي يُسأل عنها في القبر ورد ذكرها في حديث العباس بن عبد المطلب في صحيح مسلم (٥٦) أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا)) وجاء ذكرها أيضاً في أدعية الصباح والمساء ، وقد بنى عليها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله رسالته النفيسة التي لا يستغني عنها عامي ولا طالب علم : ((الأصول الثلاثة وأدلتها)) فإن مراده بالأصول الثلاثة : معرفة الله ربّه ودينه ونبيّه صلى الله عليه وسلم .

ومن الإيمان باليوم الآخر بالبعث بعد الموت ، قال الله عز وجل : { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } الزمر ٦٨

وقوله : { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } التغابن ٧

وقوله : { ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {٦} وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ } {٧} الحج

وأول القبور التي تنشق عن صاحبها هو قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، لقوله : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع والحديث عند مسلم (٢٢٧٨) .

ومن الإيمان باليوم الآخر بحشر الناس من قبورهم وغيرها على الموقف ، واستشفاع أولي العزم من الرسل لتخليصهم مما هم فيه من الشدة ، لقوله تعالى : { وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا } {الكهف ٤٧}

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((تُحْشَرُونَ خُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلَا ، قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أشدُّ من يهَمُّهم ذاك)) رواه البخاري (٦٥٢٦) ومسلم (٢٨٦٠)

ويعرض العباد على ربهم فيحاسبهم على أعمالهم قال تعالى : { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا } {الكهف ٤٨}

وقوله : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } {هود ١٨}

وقوله : { وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } {الكهف ٤٩}

وقوله : فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ {٧} فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا {٨} وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا {٩} وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ {١٠} فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا {١١} وَيَصْلَى سَعِيرًا {١٢}

وقوله : يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ {١٨} فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَفْرُؤُوا كِتَابِيهِ {١٩} إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ {٢٠} فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ {٢١} فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ {٢٢} قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ {٢٣} كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ {٢٤} وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ {٢٥} وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيهِ {٢٦} يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ {٢٧} مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ {٢٨} هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ {٢٩} خُذُوهُ فَغُلُّوهُ {٣٠} ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ {٣١} ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ {٣٢}

وقوله : يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ {٦} فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ {٧} وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ {٨}

ومن الإيمان باليوم الآخر بوزن أعمال العباد ، فإنها تحصى ثم توزن ، فمن ثقلت موازينه نجا ، ومن خفّت موازينه هلك ، قال تعالى : { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } {الأنبياء ٤٧}

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض)) رواه مسلم (٢٢٣)

ومن الإيمان باليوم الآخر بحوض نبينا صلى الله عليه وسلم ، والأحاديث فيه متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما جاء في البخاري في باب : في الحوض ، من كتاب الرقاق من صحيحه منها تسعة عشر طريقاً من (٦٥٧٥ — ٦٥٩٣) .

وذكر الحافظ ابن حجر : أن الصحابة فيها يزيدون عن خمسين صحابياً ، ذكر خمسة وعشرين منهم نقلاً عن القاضي عياض ، وثلاثة نقلاً عن النووي ، وزاد عليهما قريباً من ذلك ، فزادوا على الخمسين صحابياً (٤٦٨/١١ — ٤٦٩)

وأورد الإمام ابن كثير في كتاب النهاية أحاديث الحوض عن أكثر من ثلاثين صحابياً ، وهي مذكورة بأسانيد الأئمة الذين خرّجوها غالباً . (٢٩١/٢ — ٦٥) .

ومما جاء في صفة حوض النبي صلى الله عليه وسلم قوله : ((حوضي مسيرة شهر ، مأوه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منها فلا يظمأ أبداً . رواه البخاري (٦٥٧٩) .

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالصراط ، وهو جسر منصوب على متن جهنم ، يمر عليه المسلمون للوصول إلى الجنة على قدر أعمالهم ، فمنهم من يمر كالبرق ، ومنهم يمر كالريح ، ومنهم من يزحف زحفا ، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه : ((فيضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمرته ، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم من يوبق بعمله ، ومنهم من يُخردل ثم ينجو)) (البخاري (٨٠٦) ومسلم (٢٩٩) .

٦- الإيمان بالقدر خيره وشره ، وقد جاء في القرآن آيات كثيرة ، وفي السنة أحاديث عديدة تدل على إثبات القدر ، قال الله عز وجل : { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } القمر ٤٩ ، وقوله : { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } التوبة ٥١ ، وقوله تعالى : { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } الحديد ٢٢

وأمضا السنة فقد عقد كل من الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحهما كتاباً للقدر ، اشتملا على أحاديث عديدة في إثبات القدر ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان)) . (مسلم ٢٦٦٤)

وروى أيضاً بإسناده إلى طاوس قال : ((أدركت ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : كل شيء عنده في قدر ، قال وسمعت عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل شيء عنده بقدر - حتى العجز والكيس ، أو الكيس والعجز)) (٢٦٥٥)

والعجز والكيس ضدَّان ، فنشاط النشيط وكسل الكسول وعجزه ، كلُّ ذلك بقدر ، قال النووي في شرح الحديث : ((ومعناه أن العاجز قد قدَّر عجزه ، والكيس قد قدَّر كيسه)) (٢٠٥١١٦)

والإيمان بالقدر له أربع مراتب لا بدَّ من اعتقادها :

١- عِلْمُ اللَّهِ الْأَزَلِيِّ فِي كُلِّ مَا هُوَ كَائِنٌ ، فَإِنَّ كُلَّ كَائِنٍ قَدْ سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللَّهِ أَزْلاً ، وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ عِلْمٌ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ عَالِماً بِهِ أَزْلاً .

٢- كِتَابَةُ كُلِّ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قَالَ : وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٥٣)

٣- مَشِيئَةُ اللَّهِ وَإِرَادَتُهُ ، فَإِنَّ كُلَّ مَا هُوَ كَائِنٌ إِنَّمَا حَصَلَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، وَلَا يَقَعُ فِي مَلِكِ اللَّهِ إِلَّا مَا أَرَادَهُ اللَّهُ ، فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } النحل ٤٠ ، وَقَوْلُهُ : { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } التكويد ٢٩

٤- إِيجَادُ كُلِّ مَا هُوَ كَائِنٌ وَخَلْقُهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، وَفَقاً لِمَا عِلْمُهُ أَزْلاً وَكُتِبَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، فَإِنَّ كُلَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ ذَوَاتٍ وَأَفْعَالٍ هُوَ بِخَلْقِ اللَّهِ وَإِيجَادِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) .

والإيمان بالقدر هو من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله .

وقد يعلم المرء ما هو مقدر بأحد الأمرين الأمر :

١- الوقوع

٢- حصول الإخبار من رسول الله صلى الله عليه وسلم في المستقبل ، كما في الدجال ويأجوج وماجوج ونزول عيسى إلى ما هنالك من الغيبيات التي أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالإيمان عند أهل السنَّة والجماعة يتألف من اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح ، فهذه الأمور الثلاثة داخلة عندهم في مسمى الإيمان لقوله تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٢} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ {٣} أُولَئِكَ هُمُ

الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ {٤} {الأنفال} ، ففي هذه الآيات دخول أعمال القلوب وأعمال الجوارح في مسمى الإيمان .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((الإيمان بضع وسبعون أو بضع وشتون شعباً ، فافضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ن والحياء شعبة من الإيمان)) ، وهنا أيضاً دلّ الحديث أنّ ما يقوم بالقلب واللسان والجوارح من الإيمان ، وقد أفصح كتاب الله تعالى جدّ الإفصاح عن عطف العمل الصالح على الإيمان حين قال تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} {الكهف ١٠٧}

وقوله : {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {البقرة ٢٥}

وقوله : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} {مريم ٩٦} والإيمان متفاوت بين الناس من الأعمال والأقوال .

قال ابن حجر : فالإيمان يزيد وينقص قال الله تعالى : لِيَزِدَّادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ، وقوله وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ، وقوله : {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} ، وقوله : وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ وقوله : وَيَزِدَّادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ، وقوله أَيْكُم زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وقوله جل ذكره : فَأَخْشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا ، وقوله تعالى : وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ، والحب في الله والبغض في الله من الإيمان وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص وقال إبراهيم صلى الله عليه وسلم ولكن ليطمئن قلبي وقال معاذ بن جبل اجلس بنا نؤمن ساعة وقال ابن مسعود اليقين الإيمان كله وقال ابن عمر لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر وقال مجاهد شرع لكم من الدين أوصيناك يا محمد وإياه ديناً واحداً وقال ابن عباس شرعة ومنهاجاً سبيلاً وسنة . دعاؤكم إيمانكم لقوله عز وجل قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم (فتح الباري ٥٩١١)

أما قول إبراهيم عليه السلام ليطمئن قلبي أي ليزداد يقيني فرواه ابن جرير بسنده الصحيح إلى سعيد ، وعن مجاهد قال : لأزداد إيماناً إلى إيماني (فتح الباري (٣٦-٦٢١١)

وقد نقل الحافظ ابن حجر عن النووي ((والأظهر المختار أن التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة ، ولهذا كان الإيمان الصديق أقوى من إيمان غيره ، بحيث لا يعتريه الشبهة ، ويؤيد أن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل ، حتى إنه يكون في بعض الأحيان الإيمان أعظم يقيناً وإخلاصاً وتوكلًا منه في بعضها ، وكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها)) (فتح الباري (٤٦١١)

وقال ابن حجر : (والمرجئة قالوا : هو اعتقاد ونطق فقط . والكرامية قالوا : هو نطق فقط . والمعتزلة قالوا : هو العمل والنطق والاعتقاد والفارق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطاً في صحته والسلف جعلوها شرطاً في كماله) (فتح الباري (٦١١١)

ومرجئة الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم ، الذين قالوا بعدم دخول الأعمال في مسمى الإيمان مع النظر في مخالفتهم للمرجئة الغلاة في أن المعاصي تضر فاعلمها ، وأنه يؤخذ على ذلك ويعاقب ، وقولهم غير صحيح ، لأنه ذريعة إلى بدع أهل الكلام المذموم من أهل الإرجاء ونحوهم ، وإلى ظهور الفسق والمعاصي . (شرح الطحاوية ص : ٤٧٠) .

فأما أهل السنة والجماعة وسط في مرتكب الكبيرة بين المرجئة والخوارج ، فالمرجئة فرطوا وجعلوه مؤمناً كامل الإيمان ، وقالوا : لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، والخوارج والمعتزلة أفرطوا فأخرجوه من الإيمان ، ثم إن الخوارج بكفروه ، وقالت المعتزلة : إنه في منزلة بين المنزلتين ، وفي الآخرة اتفقوا على تخليده في النار ، وأهل السنة وصفوا العاصي بأنه مؤمن ناقص الإيمان ، فلم يجعلوه مؤمناً كامل الإيمان كما قالت المرجئة ، ولم يجعلوه خارجاً كما قالت الخوارج والمعتزلة ، بل قالوا هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته .

قوله : ((فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراه))

الإحسان في اللغة : ضدّ الإساءة ، وهو مصدر أحسن إذا أتى بما هو محسن .

قال الحافظ ابن حجر : ((الإحسان هو مصدر ، تقول أحسن يحسن إحسانا . ويتعدى بنفسه وبغيره تقول أحسنت كذا إذا أتقنته ، وأحسنت إلى فلان إذا أوصلت إليه النفع)) (فتح الباري ١ / ١٤٦) .

وفي الاصطلاح : هو الإتيان بالمطلوب شرعاً على وجه الإحسان ، كما أوضح النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث .

وقال الحافظ ابن حجر : ((وإحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود . (فتح الباري ١ / ١٤٦) .

فالعبرة قد سبق ذكرها في شرح الحديث .

فأما الإخلاص في اللغة ، هو تخليص الشيء وتجريده من غيره ، فالشيء يسمّى خالصاً إذا صفا عن شوبه وخلص عنه ، ويسمّى الفعل المصقّى المخلص من الشوائب إخلاصاً لقوله تعالى : { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ } النحل ٦٦

وفي الاصطلاح : تصفية ما يراد به ثواب الله وتجريده عن كلّ شائبة تكدر صفاءه وخلوصه له سبحانه .

والإحسان قد جاء ذكره في القرآن : تارة مقروناً بالإيمان ، وتارة مقروناً بالإسلام وتارة مقروناً بالتقوى أو بالعمل الصالح ، فالمقرون بالإيمان كقوله تعالى : { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } المائدة ٩٣ ، والمقرون بالإسلام كقوله تعالى : { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة ١١٢

والمقرون بالتقوى كقوله تعالى : { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } يونس ٢٦

وتفسير الزيادة هو النظر إلى وجه الله تعالى في الجنة (رواه الإمام مسلم ١٨١)

فالإحسان أعلى الدرجات ، فلا يقال للمؤمن محسن ولا للمسلم مؤمن ولكن إن كان محسناً كان مؤمناً ومسلماً ، فالإيمان دون الإحسان درجة ، والإسلام دون الإحسان درجتين ، ولهذا قال تعالى : { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } الحجرات ١٤

قوله : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال النووي : ((هذا من جوامع الكلم التي أوتيتها النبي صلى الله عليه وسلم ، لأننا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت ، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتنميتها على أحسن وجوها إلا أتى به)) . (صحيح مسلم ١٦١١)

قال ابن رجب : ((أن تعبد كَأَنَّكَ واقف بين يديه تراه ، ومن كان ذلك فإنه يأتي بالعبادة على التمام والكمال ، وإن لم يكن على هذه الحال فعليه أن يستشعر أن الله مطَّلَع عليه لا يخفى عليه منه خافية ، فيحذر أن يراه حيث نهاه ، ويعمل على أن يراه حيث أمره)) . (جامع العلوم والحكم ١٢٦١)

وقال أيضاً : ((يشير إلى أنَّ العبد يعبد الله على هذه الصفة ، وهي استحضار قربه ، وأنه بين يديه كأنه يراه ، وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم كما جاء في رواية أبي هريرة (أن تخشى الله كأنك تراه) ، ويوجب أيضاً النصيح في العبادة وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وكمالها)) . (١٢٨١ - ١٢٩) .

وأما قوله ((فإنه يراك ، لقد خرَّج الطبراني من حديث أنس رضي الله عنه :)) أن رجلاً قال يا رسول الله حدثني بحديث واجعله موجزاً ، فقال : صلِّ صلاة مودع ، فإنك إن كنت لا تراه فإنه يراك)) (حديث حسن ذكره الهيتمي في المجمع ٢٣٢١٠ من حديث ابن عمر)

وخطب عروة بن الزبير إلى ابن عمر ابنته وهما في الطواف فلم يجيبه ، ثم لقيه بعد ذلك فاعتذر إليه وقال : كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا ، أخرجنا أبو نعيم وغيره . (جامع العلوم والحكم ٥١١)

قوله : فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، هو إشارة إلى أن من شقَّ عليه أن يعبد الله تعالى كأنه يراه ، فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه ، فليستحي من نظره إليه كما قال بعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

وقال بعضهم : خف الله على قدر قدرته عليك ، واستحي من الله على قدر قربه منك . (جامع العلوم والحكم ٥٢١)

قال ابن رجب : ((وقد وردت الأحاديث الصحيحة بالنَّدب إلى استحضار هذا القرب في حال العبادات)) ثم ذكر جملة من الأحاديث ، وقال : ((ومن فهم من شيء من هذه النصوص تشبيهاً أو حلولاً أو اتِّحاداً ، فإنما أتى من جهله وسوء فهمه عن الله

ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله بريئان من ذلك كله ، فسبحان من ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير)) . (جامع العلوم والحكم ٥٣١) .

وقوله : ((فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني أماراتها ؟ أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم))

قوله : (فأخبرني عن الساعة) أي متى تقوم الساعة ؟ هل لديها وقت معلوم ؟

فالساعة هي من العلوم التي اختصَّ بها الله سبحانه وتعالى ، فلا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ، لا يعلم وقتها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، قال الله عز وجل : { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } لقمان ٣٤

وقوله : { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ } الأنعام ٥٩ ، ومفاتيح الغيب خمسة ومنها علم الساعة ، عن عبد الله بن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((مفاتيح الغيب خمسة ، ثم قرأ { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } (البخاري (٤٧٧٨)

وجاء في السنة أنَّ الساعة تقوم يوم الجمعة ، ولكن أي سنة ، أو في أي شهر ، أو أي جمعة ، فلا يعلم ذلك إلا الله ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة)) (مسلم ٨٥٤) .

وتطلق الساعة ويراد بها الموت عند النفخ في الصور ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس)) (مسلم ٢٩٤٩) ، وكل من مات قبل ذلك فقد جاءت ساعته وقامت قيامته ، وانتقل من دار العمل إلى دار الجزاء ، وتطلق ويراد بها البعث كما قال الله تعالى : { النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } غافر ٤٦

قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل .

قال النووي : ((فيه أنه ينبغي للعالم والمفتي وغيرهما إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، وأن ذلك لا ينقصه ، بل يستدل على ورعه وتقواه ووفور علمه)) . (صحيح مسلم ١٦٢١١)

وقال القرطبي : ((مقصود هذا السؤال كف السامعين عن السؤال عن وقت الساعة ؛ لأنهم قد أكثروا السؤال عنها كما ورد في كثير من الآيات والأحاديث ، فلما حصل الجواب بما ذكر هنا حصل اليأس من معرفتها ، بخلاف الأسئلة الماضية فإن المراد بها استخراج الأجوبة ليتعلمها السامعون ويعملوا بها ، ونبه بهذه الأسئلة على تفصيل ما يمكن معرفته مما لا يمكن)) . (فتح الباري ١٤٩١)

فالمسؤول عنها لا يعلم متى تقوم في أي سنة أو أي شهر ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك السائل لا يعلم متى تقوم الساعة في أي سنة أو أي شهر ، وهو جبريل ، فمن هنا يستنبط أن علم الساعة لا يعلمها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل كما سبق .

قال ابن رجب : ((أن علم الخلق كلهم في وقت الساعة سواء ، وهذه إشارة أن الله تعالى استأثر بعلمها)) (جامع العلوم والحكم ٥٥١١)
قوله : (فأخبرني أماراتها ؟)

قال النووي : ((هو بفتح الهمزة ، والأمرة والأمار بإثبات الهاء وحذفها هي العلامة)) (صحيح مسلم ١٦٢١١)

وعلامات الساعة تنقسم إلى قسمين : علامات قريبة من قيامها ، كخروج الدجال ، وخروج الشمس من مغربها ، وخروج يأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء ، وغيرها ...

وعلامات قبل قيام الساعة منها ما ذكر بالحديث

snamalislam

قوله : ((أن تلد الأمة رببتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطولون في البنيان)) .

قوله : ((أن تلد الأمة رببتها)) ، فُسِّر بأنه إشارة إلى كثرة الفتوحات وكثرة السبي ، وأن من المسيبات من يطؤها سيدها فتلد له ، فتكون أم ولد ، ويكون ولدها بمنزلة سيدها ، وفُسِّر بتغيير الأحوال وحصول العقوق من الأولاد لأبائهم وأمهاتهم

وتسلطهم عليهم ، حتى يكون الأولاد كأنهم سادة لأبائهم وأمهاتهم . (فتح الباري) (١٢٣١١)

قوله : ((وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)) .

قال النووي : ((أمّا العالة فهم الفقراء ، والعائل الفقير ، والعيلة الفقر ، وعال الرجل يعيل عيلة أي افتقر _____ ومعناه أن أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تبسط لهم الدنيا حتى يتباهون في البنيان)) (صحيح مسلم ١٦٣١١)

قال ابن رجب : ((المراد أن أسافل الناس يصيرون رؤساءهم وتكثر أموالهم حتى يتباهون بطول البنيان وزخرفته وإتقانه)) . (جامع العلوم والحكم ٥٦١)

ومن حديث حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع)) (أخرجه أحمد (٢٢٢١٤) والترمذي (٧٤٣١))

قوله : ((ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم))

فلبث ملياً ، أما ملياً هو وقتاً طويلاً ، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بأنه جبريل عقب انطلاقه ، وجاء أنه أخبر عمر بعد ثلاث ، وهذا ما ذكره النووي في صحيح مسلم (١٦٣١١)

وعندما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عمر رضي الله عنه وكان لا يدري فقال عمر : الله ورسوله أعلم ، فهذا من حسن أدب طالب العلم أو من سئل عن شيء وهو لا يعلم فيقول الله أعلم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسئل أصحابه للفت أنظارهم للاستعداد لجوابها .

قوله : قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ، قال النووي : ((فيه أن الإيمان والإسلام والإحسان تسمى كلها ديناً ، وأعلم أن هذا الحديث يجمع أنواعاً من العلوم والمعارف والآداب واللطائف)) (صحيح مسلم ١٦٣١١)

قال القاضي عياض : ((وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان والأعمال الجوارح والإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال ، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه متشعبة منه)) . (صحيح مسلم ١٦٢١١)

الحديث الثالث :

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدَ عبده ورسوله ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان)) رواه البخاري (٨) ومسلم (١٦).

هذا الحديث خرجاه في الصحيحين من رواية عكرمة بن خالد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وخرَّجه مسلم من طريقين آخرين عن ابن عمر ، وله طرق أخرى عنه ، وقد روي هذا الحديث من رواية جرير بن عبد الله البجلي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وخرَّج حديثه الإمام أحمد . (جامع العلوم والحكم ٦٠١)

شرح الحديث :

قوله : : (بني الإسلام على خمس) ، هنا فيه بيان عظيم على شأن هذه الأركان الخمس ، وهو أنَّ الإسلام مبنيٌّ عليها ، وهو تشبيه معنوي بالبناء الحسِّي ، فكما أنَّ البنين الحسِّي لا يقوم إلا على أعمدته ، فكذلك الإسلام إنما يقوم على هذه الخمس ، والاقتصار على هذه الخمس لكونها الأساس لغيرها ، وما سواها فإنَّه يكون تابعاً لها .

قال أبو العباس القرطبي : ((يعني أن هذه الخمس أساس الدين الإسلام وقواعده التي عليه بني وبها يقوم وإنَّما خصَّ هذه بالذكر ولم يذكر معها الجهاد مع أنَّه يظهر الدين ويقمع عناد الكافرين لأن هذه الخمس فرض دائم والجهاد فروض الكفايات وقد يسقط في بعض الأوقات)) . (شرح الأربعين النووي لابن دقيق العيد : ص ٣٥)

تنبيه: ما قال أبو العباس القرطبي رحمه الله على أن الجهاد فروض الكفايات هو كان يحكم على الجهاد في زمنه ، أي أنهم في زمنهم هم من كانوا يغزوا بلاد الكفر فكان الجهاد جهاد طلب ليس جهاد دفع كما هو حالنا اليوم ، وقد جمعت كتاب أسمه : (تذكير العباد بفرضية الجهاد) وفصلت به شيء من هذا القبيل ، ومتى يكون الجهاد فرض كفاية وفرض عين .

قال ابن رجب : ((والمراد من هذا الحديث أن الإسلام مبني على هذه الخمس ، فهي كالأركان والدعائم لبنانيه)) (جامع العلوم والحكم ٦٠١١)

وقال أيضا : ((والمقصود تمثيل الإسلام ببنيانه ودعائم البنيان هذه الخمس ، فلا يثبت البنيان بدونها ، وبقيّة خصال الإسلام كتتمّة البنيان ، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان وهو قائم لا ينتقص بنقص ذلك)) . (جامع العلوم والحكم ٦٠١١)

وهذه الأركان التي بني عليها الإسلام ، أولها الشهادتان فهما أسّ الأسس ، وبقيّة الأركان وغيرها تابع لها ، فلا تنفع هذه الأركان وغيرها من الأعمال إذا لم تكن مبنية على الشهادتين ، ولقد جاء بسط شرح هذه الشهادتين في شرح حديث جبريل .

وإن من أهمّ الأركان التي تأتي بعد الشهادتين هي الصلاة ، وقد وصفها حبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه بعمود الصلاة ، كما جاء في الحديث لمعاذ بن جبل ، وبها يكون التميّز بين المسلم والكافر .

ومما يدلّ على أهميّة شأن الصلاة أن الله فرض الصلوات الخمس على رسول الله صلى الله عليه وسلّم ليلة الإسراء وهي في السماء ، وأن من الأسباب دخول سقر بقولهم {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} المدثر ٤٣ ، ويدل ذلك على أهمية الصلاة مما جاء في السنّة وهي من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فعن أمّ سلمة : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان يقول في مرضه الذي توفي فيه : الصلاة وما ملكت أيمانكم ، فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه ، وعن أنس بن مالك قال : ((كانت عامة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلّم حين حضرته الوفاة وهو يعرّغ بنفسه : الصلاة وما ملكت أيمانكم))

وعن علي بن أبي طالب قال : ((كان آخر كلام النبي صلى الله عليه وسلّم الصلاة وما ملكت أيمانكم))

وبيان كفر تاركها جاءت بأحاديث وأثار كثيرة ونذكر شيئاً منها :

عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة)) . (مسلم ٨٢)

وقد جاء في الحديث عن أبي الدرداء ((ولا تترك الصلاة مكتوبة متعمداً ، فمن تركها متعمداً فقد برئت منه الذمة)) (أخرج ابن ماجة الجامع ٢٥٥١)

قال ابن رجب : ((فجعل الصلاة كعمود الفسطاط الذي لا يقوم الفسطاط إلا به ولا يثبت إلا به ، ولو سقط العمود لسقط الفسطاط ولم يثبت دونه)) . (جامع العلوم والحكم ٦١١)

ولقد ذكر ابن رجب رحمه الله تعالى جُملة من الأقوال في كفر تارك الصلاة ومنها ما قاله عمر رضي الله عنه : لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة ، وقال سعد رضي الله عنه وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : من تركها فقد كفر ، وقال عبد الله شقيق : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون من الأعمال شيئاً تركه كفر غير الصلاة. (جامع العلوم والحكم ٦١١)

وقد استدلَّ أحمد وإسحاق على كفر تارك الصلاة بكفر إبليس بترك السجود لأدم وترك السجود لله أعظم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إذا قرأ ابن آدم السجدة وسجد اعتزل إبليس يبكي ويقول : يا ويلي أمر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار)) (مسلم ٨١)

وأن هذه الصلوات الخمس لازمة على كل بالغ عاقل من الرجال والنساء ، ولا تنتهي هذه عبادة عن الرجال والنساء ما دام هو على قيد الحياة أو أنه قد فقد عقله ، وأيضاً قد توعد الله ورسوله بالوعيد لمن يتخلف عن صلاة الجماعة ، وقد أمر الله سبحانه أن تؤدى الصلوات حيث ينادى بهن ، وإنهن من سنن الهدى .

وكما جاء بالحديث المشهور الذي يستشهد به صغيرنا قبل كبيرنا وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ((أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً أعمى ، فقال : يا رسول الله ! إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرخص له فيصلي في بيته ، فرخص له ، فلما ولى دعاه ، فقال : هل تسمع النداء بالصلاة ؟ فقال : نعم ! قال : فأجب)) (مسلم ٦٥٣)

عن ابن مسعود قال : ((من سرّه أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادي بهن ، فإن الله شرع لنبيّكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى ،

وَأَنَّهُنَّ مِنْ سَنَنِ الْهَدْيِ ، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بَيْتِكُمْ كَمَا يَصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطَّهْوَرَ ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى الْمَسْجِدِ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً ، وَيَرْفَعُهَا بِهَا دَرَجَةً وَيَحِطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةٌ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتِي بِهِ يَهَادِي بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يَقَامَ فِي الصَّفِّ)) (مسلم ٦٥٤) .

إِنْ كَانَ الَّذِي صَلَّاهُ فِي بَيْتِهِ كَانَ مِمَّنْ تَرَكَ سُنَّةَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ مِنَ الَّذِي ضَلُّوا وَكُلٌّ مِنْ يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ كَانَ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ ، فَمَا بِالْكَافِرِ الَّذِي تَرَكَ الصَّلَاةَ بِالْكُلِّيَّةِ ؟! وَاللَّهُ إِنْ كَلَّمَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ لِيَكْتُبَ بِمَاءٍ مِنَ الذَّهَبِ .

وَعَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْهُمَا : ((كُنَّا إِذَا فَقَدْنَا الرَّجُلَ فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ وَالصُّبْحِ أَسَانًا بِهِ الظَّنَّ)) . (رواه الحاكم في المستدرک ٢١١١١) وقال صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي .

قَالَ تَعَالَى : { فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً } مريم ٥٩

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ بْنُ تَيْمِيَّةٍ : ((فَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الَّذِي يَصَلُّونَ إِذَا سَهَوَا عَنْ الصَّلَاةِ ، وَذَلِكَ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يُوْخِرَهَا عَنْ وَقْتِهَا .

الثَّانِي : أَنْ لَا يَكْمُلَ وَاجِبَاتُهَا : مِنَ الطَّهَارَةِ ، وَالطَّمَأْنِينَةِ ، وَالْخُشُوعِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ . كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ — ثَلَاثَ مَرَارٍ — يَتَرَقَّبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا .

فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْمُنَافِقِينَ التَّأْخِيرَ ، وَقَلَّةَ ذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } النساء ١٤٢

وَقَوْلُهُ : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } {١٤٥} إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا } {١٤٦} النساء

وأما قوله تعالى : {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا} مريم ٥٩

فقد قال بعض السلف : إضاعتها تأخيرها عن وقتها ، وإضاعة حقوقها ، وقالوا : كانوا يصلون ، ولو تركوها لكانوا كفاراً ، فإنه قد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((ليس بين العبد وبين الشرك إلا ترك الصلاة)) وقال ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)) وفي الحديث ((أن العبد إذا أكمل الصلاة سعدت ولها برهان كالشمس ، وتقول حفظك الله كما حفظتني ، وإن لم يكملها فإنها تلف كما يلف الثوب ، ويضرب بها وجه صاحبها ، وتقول ضيعك الله كما ضيعتني)) . (مجموع فتاوى ٢٢/٢٤-٢٥)

وقال الأوزاعي ، عن موسى بن سليمان ، عن القاسم بن مخيمرة في قوله : (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة) ، قال : إنما أضاعوا المواقيت ، ولو كان تركها كان كفراً . (تفسير ابن كثير ١٦٢/٣)

وقال الأوزاعي ، عن إبراهيم بن يزيد : أن عمر بن عبد العزيز قرأ : (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) ، ثم قال : لم تكن إضاعتهم تركها ، ولكن أضاعوا الوقت . (تفسير ابن كثير ١٦٢/٣)

وقال سعيد بن المسيب : هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ، ولا العصر حتى تغرب الشمس . (تفسير البغوي ص ٢٤١)

قال ابن كثير : ((وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع : لأنها عماد الدين وقوامه ، وخير أعمال العباد - وأقبلوا على شهوات الدنيا وملأوها ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقون غيا ، أي : خساراً يوم القيامة .)) (تفسير ابن كثير ١٦٢/٣)

عن عبد الله بن مسعود { فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا } قال : واد في جهنم من قيح ودم . (تفسير ابن كثير ١٦٢/٣)

قال وهب : " الغي " نهر في جهنم بعيد قعره خبيث طعمه (تفسير البغوي ص ٢٤١)

قوله : (إيتاء الزكاة) ، فالزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكما قال الله تعالى {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ} البقرة ٤٣

وقوله : { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } التوبة ١١

وقوله : { وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } البينة ٥

ومعنى الزكاة : هي في اللغة : النماء والتطهير ، فالمال ينمي بها من حيث لا يرى ، وهي مطهرة لمؤديها من الذنوب ، وقيل : ينمي أجرها عند الله تعالى . وسميت في الشرع زكاة لوجود المعنى اللغوي فيها ، وقيل : لأنها تزكي صاحبها وتشهد بصحة إيمانه ، كما سبق في قوله صلى الله عليه وسلم : " والصدقة برهان " . قالوا : وسميت صدقة ؛ لأنها دليل لتصديق صاحبها وصحة إيمانه بظاهره وباطنه ، قال القاضي عياض : قال المازري - رحمه الله - : قد أفهم الشرع أن الزكاة وجبت للمواساة ، وأن المواساة لا تكون إلا في مال . (صحيح مسلم ٤٥١٧)

قال ابن تيمية : ((شرعت الزكاة للمواساة ، ولا تكون المواساة إلا فيما له مال من الأموال)) (مجموع فتاوى ٨١٢٥)

وهي عبادة مالية نفعها متعدّد ، وقد أوجبها الله في أموال الأغنياء على وجه ينفع الفقير ولا يضرّ الغني ، لأنها شيء يسير من مال كثير .

ولقد قال ابن مسعود أن تارك الزكاة ليس بمسلم ، وعن أحمد أن ترك الصلاة والزكاة خاصة كفر دون الصيام والحج . (جامع العلوم والحكم ٦٢١١)

وقال ابن مسعود أيضاً : من لم يزكّ فلا صلاة له ، فقال ابن رجب : ونفي القبول هنا لا يراد بنفي به نفي الصحة ولا وجوب الإعادة بتركه ، وإنما يراد بذلك انتفاء الرضا به ومدح عامله والثناء بذلك عليه . (جامع العلوم والحكم ٦٣١١)

وقوله : (وحج البيت) ، إنّ حج البيت لله عبادة مالية مدنيّة ، وقد أوجبها الله في العمر مرة واحدة ، وبين فضلها بقوله صلى الله عليه وسلم : ((من حجّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)) (البخاري ١٨٢٠ ومسلم ١٣٥٠)

وقوله صلى الله عليه وسلم : (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) (مسلم ١٣٤٩)

قال النووي : ((الحج بفتح الحاء هو المصدر ، وبالفتح والكسر جميعا هو الاسم منه ، وأصله : القصد ، ويطلق على العمل أيضا ، وعلى الإتيان مرة بعد أخرى ، وأصل العمرة : الزيارة)) . (صحيح مسلم ٦٣/٨)

وقال ابن قدامة : ((الحج في اللغة : القصد . وعن الخليل ، قال : الحج كثرة القصد إلى من تعظمه)) (المغني ٨٥/٣) .

قوله : (صوم رمضان) ، فهذه العبادة عبادة بدنيّة ، وهي سر بين العبد وبين ربّه سبحانه ، ولا يطلع عليه إلا الله جلّ وعز ، لأنّ من الناس من يكون في شهر رمضان مفطراً وغيره يظنّ أنّه صائم ، وقد يكون الإنسان صائماً في نفلٍ وغيره يظنّ أنّه مفطر ، ولأجل ذلك قال الله عزّ وجلّ ﴿ إِلَّا الصَّوْمُ فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ﴾ (البخاري ١٨٩٤ ومسلم ١٦٤) ، ولقد خُصّ الصوم في هذا الحديث بأنّه الله لما فيه من خفاء هذه العبادة ، وأنّه لا يطلع عليها إلا الله سبحانه وتعالى .

قال ابن قدامة : ((الصيام في اللغة : الإمساك ، يقال : صام النهار . إذا وقف سير الشمس . قال الله تعالى إخباراً عن مريم : { إني نذرت للرحمن صوما } . أي صمتاً ؛ لأنه إمساك عن الكلام ، وقال الشاعر :

خيل صيام وخيل غير صائمة *** تحت العجاج وأخرى تعلقك اللجما (المغني ٣/٣)
فهذه الأركان الخمسة وردت في الحديث مرتبة حسب أهميتها ، وبدء فيها بالشهادتين اللتين هما أساس لكل عمل يُتقرب به إلى الله تعالى ، ثم الصلاة التي تتكرّر في اليوم والليلة خمس مرّات ، فهي الصلة وثيقة بين العبد وربّه ، وعندما فرضت الصلاة قالوا الصحابة لقد ملكنا خزائن السموات والأرض ، ثمّ الزكاة التي تجعل المواساة بين الغني والفقير ، والتي تجب أن يزكّي المال إذا بلغ النصاب ومضى عليه الحول ، والنفع بهذه الفريضة متعدّد وعلى ازدياد ، والحج التي هي بدنيّة وماليّة بأن واحد ، والتي لا تجب على الإنسان إلا مرّة واحدة في العمر ، والصيام الذي يجب شهراً في السنة ، وهي عبادة بدنيّة .

snamalislam

الحديث الرابع :

عن ابن عمر رضي الله عنهما : ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى)) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

هذا الحديث خرجه في ((الصحيحين)) من رواية واقد بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده عبد الله بن عمر ، وقوله بحق الإسلام هذه اللفظة تفرّد بها البخاري دون مسلم . وقد روي معنى هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه متعدّدة ، ففي ((صحيح البخاري)) عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ ، حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَصَلُوا صَلَاتِنَا ، وَاسْتَقْبَلُوا قِبَلَتَنَا ، وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا فَقَدْ حَرَمْتُ عَلَيْنَا دِمَاؤَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا)) (البخاري ٣٩٢)

وخرّج الإمام أحمد ، من حديث معاذ بن جبل ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((قَالَ أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ اعْتَصَمُوا أَوْ عَصَمُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ)) (صحيح أخرجه أحمد ٢١١٠٦ وفيه شهر بن حوشب إلا أن الحديث صحيح بشواهد) .

شرح الحديث :

قوله : ((أَمَرْتُ)) ، فالأمر يكون للنبي صلى الله عليه وسلم هو الله سبحانه وتعالى الذي يأمره وينهاه ، وإن قال أحد الصحابة أمرنا بكذا وكذا فيكون الذي أمرهم هو النبي صلى الله عليه وسلم فهو الذي يأمرهم وينهاهم .

وقوله : ((أَقَاتِل)) ، فهو قتال الكفار وجهادهم بسيف حتى يعبد الله وحده ، فإما أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، كما قال النبي بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رَمْحِي وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ ، وإما أن يعطوا الجزية وهم صاغرون قال تعالى { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } التوبة ٢٩ ، فلا أمان لهم من القتال إلا بهتين الحاليتين

إما الدخول في الإسلام أو دفع الجزية ، ودفع الجزية لا يكون إلا من الكفار الأصليين من اليهود والنصارى ، فأما المرتدون فلا جزية لهم ولا أمان .

وقد سبق شرح الشهادتين من حديث الثاني حديث جبريل عليه السلام ، وأما الصلاة والزكاة أيضاً فقد جاء بسطهما من حديث الأركان الخمسة .

وقوله : ((عصموا مني دمائهم وأموالهم)) ، قال ابن رجب : يدلُّ على أنَّه كان عند هذا القول مأموراً بالقتال، ويقتل من أبى الإسلام ، وهذا كُلُّه بعد هجرته إلى المدينة ، ومن المعلوم بالضرورة أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل من كل ما جاءه يريد دخول في الإسلام بالشهادتين ، ويعصم دمه بذلك ، ويجعله مسلماً ، وقد انكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال : لا إله إلا الله لما رفع عليه السيف واشتدَّ النكير عليه . (جامع العلوم والحكم ١١٠١)

فالناس اليوم في هذه المعمورة تنقسم إلى ثلاث أقسام :

- ١- مسلمين
- ٢- مسالم غير محارب
- ٣- ومحارب غير مسالم

قال ابن القيم : ((فاستقرَّ أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة ، ثمَّ آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة ، والمحاربون له : خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب)) (زاد المعاد ١٦٠/٣)

وبهذه الحديث يدلُّ لنا أنَّ علة القتال هو الكفر ، والشرك ، فإذا دخلوا بدين الله سبحانه عصموا دمائهم وأموالهم ، فالكافر والمشرِك والمرتد لا عصمة له ، أي يستباح دمه وماله ، فالذي يعصم دمه وماله هو الإسلام أو الجزية ، وكما سبق وقلنا أن المرتد لا جزية له حتى يعطى الأمان لقوله تعالى : { تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ } قال القرطبي في هذه الآية ((هذا حكم من لا تؤخذ منهم الجزية ، وهو معطوف على تقاتلونهم ، أي يكون أحد الأمرين ، إما المقاتلة وإما الإسلام لا ثالث لهما . (تفسير القرطبي ١٦ ٢٧٣١)

فالكفر ، وإباحة الدم والمال : قرينان لا ينفكان في دين الله وشرعه بمحكم التنزيل ، ولا يعصم من ذلك إلا من عصمه الإسلام بذمة أو هدنة أو أمان .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : ((لأعطينَّ هذه الرّاية رجلاً يحب الله ورسوله : يفتح الله على يديه))

قال عمر بن الخطاب صلى الله عليه وسلم : ما أحببت الإمارة إلا يومئذٍ ، قال : فتساورت لها رجاء أن أدعى لها .

قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب ، فأعطاه إياها ، وقال : ((امشِ ، ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك))

قال : فسار عليّ شيئاً ثم وقف ، ولم يلتفت فصرخ : يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ((قاتلوهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك : فقد منعوا منك دماءهم ، وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله)) (مسلم ١٨٧١)

والقول في هذا الحديث كقول في حديث عبد الله بن عمر ، فكلاهما نصٌّ صريح غير قابل لا للتأويل ولا للتحريف في رفع العصمة عن غير أهل الإسلام وعدم ثبوتها إلا به .

قال الإمام الشافعي : ((الله تبارك وتعالى حرّم دم المؤمن وماله إلا بواحدة ألزمه إياها ، وأباح دم الكافر وماله إلا بأن يؤدي الجزية أو يستأمن إلى مدّة)) (الأم ٢٦٤١)

وقال أيضاً : ((أن دمائهم ، وأموالهم : مباحة قبل الإسلام أو العهد أو العهد لهم)) (الأم ٣٧١٦)

وقال الشافعي أيضاً : ((وذلك تحلّ دماؤهم مقبلين ، ومدبرين ، ونياماً ، وكيفما قدر عليهم إذا بلغتهم الدعوة)) (الأم ٢١٩٤)

قال الإمام الشوكاني : ((أن كافر الحربي : مباح الدم والمال على كل حال ما يؤمن من المسلمين ، وأن مال المسلم ودمه : معصومان بعصمة الإسلام في دار حرب وغيرها)) (النيل الجرار ٥٧٦٤)

قال ابن قدامة المقدسي : ((وكذلك لو ارتدّ جماعة وامتنعوا في دارهم عن طاعة إمام المسلمين : زالت عصمتهم في أنفسهم ، وأموالهم ، لأن الكفار الأصليين لا عصمة لهم في دارهم ، فالمرتد أولى)) (المغني ٢٠١٩)

ولقد ترجم على مثل هذه النصوص أهل الحديث ومنها :

١- ((فيما يحقن به الدم ، ويُرفع عن الرجل القتل)) (مصنف ابن أبي شيبة (٥٥٦١٥)

٢- ((فيما يمتنع به عن القتل ، وما هو ، وما يحقن الدم)) (مصنف ابن أبي شيبة (٤٨١١٦)

٣- وترجم النسائي بقوله : ((باب : تحريم الدم)) (المجتبى ٧٥١٧)

٤- وترجم أيضاً ابن ماجة بقوله : ((باب : الكف عمّن قال لا إله إلا الله)) (السنن ١٢٩٥١٢).

٥- وترجم لها أيضاً الدار قطني بقوله : ((باب تحريم دمائهم ، وأموالهم إذا يشهدوا بالشهادتين ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة)) (سنن الدار قطني (٢٣١١١)

قال الإمام الشافعي : ((حقن الله الدماء ، ومنع الاموال - إلا بحقها - بالإيمان بالله وبرسوله أو عهد من المؤمنين بالله ورسوله لأهل الكتاب ، وأباح دماء البالغين من الرجال بالامتناع من الايمان إذا لم يكن لهم عهد) (الأم ٢٥٧١١)

وعلى هذه النصوص الصريحة الواضحة نبيّن لنا على أصل إباحة دم الكافر وماله كما في آية السيف .

قال ابن رجب : ((فجعل مجرّد الإجابة إلى الشهادتين عصمة للنفوس والأموال إلا بحقها ، ومن حقها الامتناع عن الصلاة والزكاة بعد الدخول في الإسلام كما فهمه الصحابة رضي الله عنهم)) (جامع العلوم والحكم ١١١١١)

ولهذا الحديث قصة بين عمر بن الخطاب وأبو بكر رضي الله تعالى عنهما وهي مناظرة فيما بينهم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعده ، وكفر من كفر من العرب ، قال عمر رضي الله عنه لأبي بكر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ، فقال عمر فو الله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق . (البخاري ١٣٩٩ و ١٤٠٠ ، ومسلم ٢٠)

فأبو بكر رضي الله عنه أخذ قتالهم من قوله ((إلا بحقه)) فدلَّ على أنَّ قتال من أتى بالشهادتين بحقه جائز ، ومن حقه أداء حق المال الواجب ، وعمر رضي الله عنه ظنَّ أن مجرد الإتيان بالشهادتين يعصم الدم في الدنيا تمسكاً بعموم أول الحديث كما ظنَّ طائفة من الناس أنَّ من أتى بالشهادتين امتنع من دخول النار في الآخرة تمسكاً بعموم ألفاظ وردت ، وليس الأمر على ذلك ، ومن ثمَّ رجع إلى موافقة الإمام أبي بكر رضي الله عنه . (جامع العلوم والحكم ١١٣١)

قال ابن حجر : ((وقد استبعد قومٌ صحَّته بأنَّ الحديث لو كان عند ابن عمر لما ترك أباه ينازع أبا بكر في قتال مانعي الزكاة ، ولو كانوا يعرفونه لما كان أبو بكر يُقرُّ عمر على الاستدلال بقوله عليه الصلاة والسلام : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) وينتقل عن الاستدلال بهذا النص إلى القياس ، إذا قال : لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، لأنَّها قرينتها في كتاب الله ، والجواب : أنَّه لا يلزم من كون الحديث المذكور عند ابن عمر أن يكون استحضره في تلك الحالة ، ولا يمتنع أن يكون ذكره لهما بعد ، ولم يستدلَّ أبو بكر في قتال مانعي الزكاة بالقياس فقط ، بل أخذه أيضاً من قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه : ((إلا بحق الإسلام)) ، قال أبو بكر : والزكاة حق الإسلام كون الحديث المذكور عند ابن عمر أن يكون استحضره في تلك الحالة ، ولا يمتنع أن يكون ذكره لهما بعد ، ولم يستدلَّ أبو بكر في قتال مانعي الزكاة بالقياس فقط ، بل أخذه أيضاً من قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه : ((إلا بحق الإسلام)) ، قال أبو بكر : والزكاة حق الإسلام ، ولم ينفرد ابن عمر بالحديث المذكور ، بل رواه أبو هريرة أيضاً بزيادة الصلاة والزكاة فيه ، كما سيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى في كتاب الزكاة ، وفي قصَّة دليل على أنَّ السنَّة قد تُخفي على بعض أكابر الصحابة ويطلَّع عليها آحادهم ، ولهذا لا يُلتفت إلى الآراء ، ولو قويت مع وجود سنة تخالفها ، ولا يقال كيف خفي ذا على فلان ، والله الموفق)) (فتح الباري ٧٦١)

قوله : ((وحسابهم على الله)) ، قال ابن رجب : ((أنَّ الشهادتين مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تعصم دم صاحبها وماله في الدنيا والآخرة إلا أن يأتي ما يبيح دمه ، وأما في الآخرة فحسابه على الله عزَّ وجل ، فإن كان صادقاً أدخله الله بذلك الجنة ، وإن كان كاذباً فإنه من جملة المنافقين في الدرك الأسفل من النار .)) (جامع العلوم والحكم ١١٥١)

الحديث الخامس :

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : ((أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي ، فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وكان عمر رضي الله تعالى عنهما يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك)) رواه البخاري .

هذا الحديث خرَّجه البخاري عن علي بن المديني ، حدَّثنا محمد بن عبد الرحمن الطفاوي ، حدَّثنا الأعمش ، حدَّثني مجاهد ، عن ابن عمر فذكره ، وقد تكلم غير واحد من الحفاظ في قوله : حدَّثنا مجاهد وقالوا : هي غير ثابتة ، وأنكروها على ابن المديني وقالوا : لم يسمع الأعمش هذا الحديث من مجاهد إنما سمعه من ليث بن أبي سليم عنه ، وقد ذكر ذلك العقيلي وغيره ن وأخرجه الترمذي من حديث ليث عن مجاهد وزاد فيه ((وعدَّ نفسك من أهل القبور)) وهذا الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ورقمه ٦٤١٦ .

شرح الحديث :

قوله : ((أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي)) فهذا تنبيه وحث له على وعي ما يلقي عليه في هذه الحال ، وإخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بذلك يدل على ضبطه وإتقانه ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن فيه تذكُّر الحالة التي حصلت عند سماعه هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)) ، فالغريب هو المقيم في غير بلده لقضاء حاجة ، ويستعدُّ للمغادرة ذلك البلد متى تمكَّن من ذلك ، وعابر السبيل هو المسافر الذي يمرُّ بالبلاد مروراً دون إقامة بها حتى ينتهي من سفره ، ودار الغربية وعبور السبيل في هذا الحديث هي الدنيا ، والسير فيها للآخرة ، وذلك إنما يكون بتذكر الموت وقصر الأمر والاستعداد فيها للآخرة بالأعمال الصالحة ، كما قال الله تعالى : { وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى }

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ((ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظلِّ شجرة ثم راح وتركها)) (صحيح أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧ وقال حسن صحيح ، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩)

وكما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر)) (مسلم ٢٩٦٠)

وأيضاً النبي صلى الله عليه وسلم وصّى جماعة من الصحابة أن يكون بلاغ احدهم من الدنيا كزاد الركاب ، منهم سلمان وأبو عبيدة بن الجراح وأبو ذر وعائشة رضي الله عنهم . (وحديث سلمان صحيح ، هو عند أحمد وابن ماجه ، ولكن حديث عائشة ضعيف جداً أخرجه الترمذي والحاكم وانظر الضعيفة ١٢٩٤)

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ((ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإنّ اليوم عمل بغير حساب ، وغداً حساب بغير عمل)) (ذكره البخاري في صحيحه مع الفتح ٢٣٥١١)

ويقال أنّ عليّ سمع رجلاً يسبّ الدنيا ، فقال إنها لدار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزوّد منها ، ومسجد أحباء الله ، ومهبط الوحي ، ومصلى ملائكته ، ومتجر أوليائه ، واكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمّ الدنيا وقد آذنت بفرّاقها ، ونادت بعبئها ، ونعت نفسها وأهلها ، فمثلت ببلائها البلاء ، وشوّقت بسرورها إلى أهل السرور ، فذمها قوم عند الندامة ، ومدحها آخرون ، حدّثتهم فصدقوا ، وذكرتهم فذكروا ، فيا أيها المغتر بالدنيا ، المغتر بغرورها ، متى استلأمت إليك الدنيا ؟ بل متى غرّتك ؟ أمضاج آبائك تحت الثرى ؟ أم بمصارع أمهاتك من البلى ؟ كم قد قلبت بكفّيك ، ومرّضت بيديك تطلب له الشفاء ، وتسأل له الأطباء ، فلم تظفر بحاجتك ، ولم تسعف بطلبتك ، قد مثّلت لك الدنيا بمصرعه مصرعك غداً ، ولا يغني عنك بكاؤك ، ولا ينفعك أحباؤك . (خرّجه ابن أبي الدنيا عن علي رضي الله عنه والإسناد فيه نظر)

قال ابن رجب : ((فبيّن أمير المؤمنين رضي الله عنه أن الدنيا مساجد الأنبياء ، ومهبط الوحي ، وهي دار التجارة للمؤمنين ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا بها الجنة ، فهي نعم الدار لمن كانت هذه صفته . وأما ما ذكر من أنّها تغرّ وتخدع ، فإنّها تنادي بمواعظها ، وتنصح بعبيرها ، وتبدي عيوبها بما تروي أهلها من مصارع الهلكى ، وتقلب الأحوال من الصحة إلى السقم ، ومن الشبيبة إلى الهرم ، ومن الغنى إلى الفقر ، ومن العزّ إلى الذلّ ، ولكن مَحِبَّها قد أصمّه وأعماه حبّها ، فهو لا يسمع نداءها ، كما قيل :

قد نادت الدنيا على نفسها ***** لو كان في العالم من يسمعُ

كَمْ وَاثِقٌ بِالْعَمْرِ أَفْنِيَتُهُ ***** وَجَامِعٌ بَدَدْتُ مَا يَجْمَعُ (جامع العلوم والحكم ٣٩٧١١)

قال ابن القيم في مقدمة ((حادي الأرواح))
فحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ***** منازلُكَ الأولى وفيها المَخِيمُ
ولكننا سبي العدو فهل ترى ***** نعود إلى أوطاننا ونسلم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ***** وشطت به أوطانه فهو مغرم
وأي اغتراب فوق غربتنا التي ***** لها أضحت الأعداء فينا تحكم

ولله درُّ من قال :
سبيلك في الدنيا سبيل مسافر ***** ولا بدَّ من زاد لكلِّ مسافر
ولا بدَّ للإنسان من حمل عدَّةٍ ***** ولا سيِّما إن خاف صولة قاهر
وقال آخر :
وما هذه الأيام إلا مرحل ***** يحثُّ بها داع إلى الموت قاصد
وأعجب شيء لو تأملت أنها ***** منازل تطوى والمسافر قاعد

وقال آخر :

أيا ويح نفسي من نهار يفودها ***** إلى عسكر الموتى وليل يزودها
قال الحسن : لم يزل الليل والنهار سريعين في نقص الأعمار ، وتقريب الآجال ،
هيهات قد صحبا نوحاً وعاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً ، فأصبحوا قد أقدموا
على ربِّهم ، ووردوا على أعمالهم ، وأصبح الليل والنهار غضين جديدين ، لم
يُبلِّهما ما مرَّأ به ، مستعدين لمن بقي بمثل ما أصابا به من مضى ، وكتب الأوزاعي
إلى أخ له : أما بعد ، فقد أحيط بك من كلِّش جانب ، واعلم أنَّضه يسار بك في كلِّش

يوم وليلة ، فاحذر الله ، والمقام بين يديه وأن يكون آخر عهدك به ، والسلام . (جامع العلوم والحكم ٥٠٣/١)

ومن وصايا عيسى عليه السلام لأصحابه : ((اعبروها ولا تعمروها)) (جامع العلوم والحكم ٤٩٩/١)

قال الطيبي : ((ليست أو للشك بل للتخيير والإباحة والأحسن أن تكون بمعنى بل فشبه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه ولا مسكن يسكنه ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع وبينهما أودية مردية ومفاوز مهلكة وقطاع طريق فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لمحة ومن ثم عقبه بقوله إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح)) . (فتح الباري كتاب الرقاق ص ٢٣٨)

وكان العطاء السلمي يقول في دعائه : اللهم ارحم في الدنيا غربتي ، وارحم في القبر وحشتي ، وارحم موقفي غداً بين يديك . (جامع العلوم والحكم ٥٠٠/١)

نسير إلى الآجال في كل لحظة ***** وأيمنا تطوى وخنّ مراحل

ولم أرَ مثل الموت حقاً كأنه ***** إذا ما تخطته الأمانى باطل

وما أقبح التفريط في زمن الصبا ***** فكيف به والشيب للرأس شاعل

ترحل من الدنيا بزداد التقى ***** فعمرك أيام وهنّ قلائل

قوله : ((وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء)) ، فيه مبادرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تنفيذ وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم يرشد غيره إلى تنفيذ ذلك ، والمعنى أن المسلم يكون مترقباً الموت ، فهو يستعدُّ له بالعمل الصالح دون كسل أو تأخير ، ويعمل الصالحات في نهاره كأنه لا يدرك المساء ، وفي ليله كأنه لا يدرك الصباح ، وفي ترجمة منصور بن زاذان في تهذيب الكمال : قال هُشيم بن بشير الواسطي : ((لو قيل لمنصور بن زاذان : إنّ ملك الموت على الباب ما كان عنده زيادة في العمل)) .

قال أبي العتاهية :

وما أدري إن أمّلت عُمرًا ***** لعليّ حين أصبح لست أمسي
ألم تر أن كل صباح يوم ***** وعُمرُك فيه أقصر منه أمس

روي عن أبي الدرداء والحسن أنهما قالَا : ((ابن آدم إنك لم تنزل في هدم عمرك
منذ سقطت من بطن أمك))

إنا لنفرح بالأيام نقطعها ***** وكلّ يوم مضى يدني من الأجل
فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً ***** فإنما الربح والخسران في العمل

قوله : ((وخذ من صحتك لسقمك ، ومن حياتك لموتك)) ، قال ابن حجر : ((
والمعنى اشتغل في الصحة بالطاعة بحيث لو حصل تقصير في مرض لا يجبر
بذلك)) (فتح الباري كتب الرقاق ص ٢٣٩)

قال ابن رجب : ((اغتنم الأعمال الصالحة في الصحة قبل أن يحول بينك وبينها
السقم ، وفي الحياة قبل أن يحول بينك وبينها الموت)) (جامع العلوم والحكم
٥٠٤/١)

قال أبو الفرج الجوزي : ((الواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله ، فإنّه لا يعلم متى
يفجؤه أمر ربّه ، ولا يدري متى يُستدعى ؟ وإنّي رأيت خلقاً كثيراً غرّهم الشباب ،
ونسو فقد الأقران ، وألهاهم طول الأمل .

وربّما قال العالم المحض لنفسه : أشتغل بالعلم اليوم ثم أعمل به غداً ، فيتساهل في
الزلل بحجة الراحة ، ويؤخّر الأهبة لتحقيق التوبة ، ولا يتحاشى من غيبة أو
سماعها ، ومن كسب شبهة يأمل أن يمحوها بالورع .

وينسى أن الموت قد يَبْغَتْ)) . (صيد الخاطر ص ١٥)

عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : ((نعمتان مغبون فيهما كثير
من الناس : الصحة والفراغ)) (رواه البخاري)

قال غنيم بن قيس : ((كنا نتواعظ في أول الإسلام : ابن آدم اعمل في فراغك قبل شغلك ، وفي شبابك لكبرك ، وفي صحتك لمرضك ، وفي دنياك لآخرتك ، وفي حياتك لموتك) (جامع العلوم والحكم ٥٠٤/١)

اغتنم في الفراغ فضل الركوع ***** فعسى أن يكون موتك بغته
كم صحيح مات من غير سقم ***** ذهبت نفسه الصحيحة فلتته

قال محمود الوراق :

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلاً ***** وأعقبه يوم عليك جديد
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة ***** فثنّ بإحسان وأنت حميد
فيومك إن أعقبته عاد نفعه ***** عليك وماضي الأمس ليس يعود
ولا ترج فعل الخير يوماً إلى غدٍ ***** لعلّ غداً يأتي وأنت فقيد

الحديث السادس :

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
" لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ "
(البخاري ٣٤٤٥)

هذا الحديث أورده البخاري في باب قول الله تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ} مريم ١٦، وأورده ضمن خطبة خطبها عمر رضي الله عنه وذلك في (كتاب المحاربين) في (باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت)، وسنده: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس، وسياق محل الشاهد منه قول عمر رضي الله عنه: ألا ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تطروني كما أطري عيسى بن مريم، وقولوا: عبد الله ورسوله)، وهذا الحديث مما انفرد به البخاري عن مسلم.

قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً أو ضلالاً أو رشاداً أو صحيحاً أو كذباً ولهذا قال الله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ}. (التفسير ٧٦٣/١)

عن أنس بن مالك أن رجلاً قال يا محمد أ سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهويكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله ورسوله والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل)) (أحمد في المسند ١٥٣/٣ قد تفرد به من هذه الجهة)

فإن النصراني قد جعلوا لله صاحبة وولداً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، قال أبو جعفر : يعني جل ثناؤه بقوله : "يا أهل الكتاب" ، يا أهل الإنجيل من النصراني "لا تغلوا في دينكم" ، يقول : لا تجاوزوا الحق في دينكم فتفرطوا فيه ، ولا تقولوا في عيسى غير الحق ، فإن قيلكم في عيسى إنه ابن الله ، قول منكم على الله غير الحق . لأن الله لم يتخذ ولداً فيكون عيسى أو غيره من خلقه له ابناً ولا تقولوا على الله إلا الحق" . (تفسير الطبري لسورة النساء ص ٤١٥-٤١٦)

وللروافض جنس من عقيدتهم في الغلو لآل البيت النبي صلى الله عليه وسلم فقد غلو بهم حتى رفعوا بعضهم فوق منزلتهم التي يجب أن يكون عليها ومنهم من أوصلهم إلى مرتبة الألوهية مثل علي رضي الله عنه ، ومنهم ما ادعى العصمة في آل البيت النبي صلى الله عليه وسلم وهذا عين الغلو ، وهو شبيه بغلو النصراني .

ومما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من غلو النصراني مما جاء في الأحاديث ، ففي الصحيحين من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالاً : ((لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا))

وأما سبب اللعن في هذا الحديث الجليل هو اتخاذ اليهود والنصارى قبور أنبيائهم مساجد ، وبيان الغرض من ذكر ذلك ، وهو تحذير الأمة من الوقوع فيما وقع فيه اليهود والنصارى .

قال ابن حجر : ((وكأنه صلى الله عليه وسلم عَلِمَ أَنَّهُ مرتحلٌ من ذلك المرض ، فخاف أن يُعْظَمَ قبره كما فعل من مضى ، فلعن اليهود والنصارى إشارة إلى ذمٍّ من يفعل فعلهم)) (فتح الباري ٥٣٢١)

فإنَّ النصوص كثرت في الكتاب والسنة في النهي عن الشرك والتحذير منه وبيان خطره ، بل جاءت النصوص لسدِّ الذرائع التي تؤدِّي إليه ، وقد تواترت الأحاديث في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن القيم : ((أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بناء المساجد على القبور ولعن من فعل ذلك ، ونهى عن تجصيص القبور وتشريفها واتخاذها مساجد ، وعن الصلاة إليها وعندها ، وعن إيقاد المصابيح عليها ، وأمر بتسويتها ، ونهى عن اتخاذها عيداً ، وعن شدِّ الرحال إليها ، لنلأ يكون ذلك ذريعة إلى اتخاذها أوثاناً والإشراك بها ، وحرم ذلك على من قصده ومن لم يقصده ، بل قصد خلافه سداً للذريعة .)) (إعلام الموقعين ١٥١٣)

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ فِي سَفَرٍ فَرَأَى قَوْمًا يَنْتَابُونَ مَكَانًا لِلصَّلَاةِ فَقَالَ مَا هَذَا فَقَالُوا هَذَا مَكَانٌ صَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنَّمَا هَلْكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا آثَارَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ مِنْ أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ وَإِلَّا فَلْيَمِضْ .

فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي الهيثاج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب : ((ألا أبعتك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته)) وفي لفظ : (ولا صورة إلا طمسها))

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) (رواه احمد ٢٤٦١٢ ، والحميدي ١٠٢٥ ، وأبو نعيم ٢٨٣٦٦ والحديث حسن)

قال ابن القيم : ((فإن هذا وأمثاله من النبي صلى الله عليه وسلم صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه ، وتجريد له ، وغضبٌ لربِّه أن يُعدَّلَ به سواه ، فأبى المشركون إلا معصية لأمره ، وارتكاباً لنهيهِ ، وغرَّهم الشيطان ، فقال : بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين ، وكلِّما كنتم أشدَّ لها تعظيماً ، وأشدَّ فيها غلوّاً

، كنتم بُقربهم أسعد ، ومن أعدائهم أبعد)) (اغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ص (٢٥٢)

والعيد : ما يعتاد مجيئه وقصدُه من مكان وزمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى عيدنا أهل الإسلام)) (أبو داود ٢٤١٩ ، والترمذي ٧٧٣) .

قال ابن القيم : ((والعيد : مأخوذ من المعاودة ، والاعتیاد ، فإذا كان أسماً للمكان ، فهو المكان الذي يُقصد الاجتماع فيه وانتيابه للعبادة ، أو غيرها)) (اغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ص ٢٥٣)

أما قوله : ((عبد الله ورسوله)) فقد سبق بسط شرحها من الحديث الثاني .

وقد جمع صلى الله عليه وسلم بينه وبين عيسى صلى الله عليه وسلم في وصف كل منهما بأنه عبد الله ورسوله حيث قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته: (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل). وسر الجمع بينهما عليهما الصلاة والسلام ووصفهما بكونهما عبدي الله ورسوليه، بيان أن عقيدة الإسلام في حق عيسى عليه الصلاة والسلام: أنه عبد الله ورسوله، فلا يغلى فيه غلو النصارى من جانب، ولا يقصر في حقه كما قصرت النصارى من جانب آخر، وكما جفت اليهود لعنة الله عليهم، وبيان أن الواجب في حق محمد صلى الله عليه وسلم وصفه بذلك وعدم الإفراط والتفريط، وأن وصفه بأنه عبد الله يقتضي اعتقاد أنه لا يستحق أن يصرف له شيء مما لا يستحقه إلا الله تعالى، ووصفه بأنه رسول الله يقتضي تصديقه في جميع ما يخبر به من أخبار في الماضي وفي المستقبل، وفي ما هو موجود غير مشاهد لنا، ويقتضي طاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه، وتقديم محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والوالد والولد والناس أجمعين، وأن لا يعبد الله إلا على وفق ما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه، هذه عقيدة المسلمين في عيسى عليه الصلاة والسلام وفي محمد صلى الله عليه وسلم، وسط بين طرفي الإفراط والتفريط. ولقد أحسن الشاعر إذ يقول:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ** كلا طرفي قصد الأمور ذميم

الحديث السابع :

وهو قولٌ لعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، ((عندما جاء إلى الحجر الأسود وقَبَّله ، قال : إني أعلم أنَّك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع ، ولو لا أنَّي رأيت النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم يقبُّلك ما قبَّلتك)) . (البخاري ١٥٩٧) (مسلم ١٢٧٠)

شرحه ، أو التعليق عليه :

إنَّ نعم الله تعالى لا تعد ولا تُحصى على عباده فهي كثيرة ، وأجلُّ نعمة أنعمها الله بها على الإنس والجن في آخر الزمان أن بعث فيهم رسوله الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ، فبلَّغهم ما أرسل به إليهم من ربِّهم على التمام والكمال .

قال محمد بن مسلم بن شهاب الزهري : ((من الله عزَّ وجل الرسالة ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم البلاغ ، وعلينا التسليم)) (فتح الباري ٥٠٣/١٣)

قال تعالى : {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} آل عمران ١٦٤

فإنَّ الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا من أشدَّ النَّاس اتِّباعاً للسنة وأشدَّ تحذيراً من البدع والضلالات ، فقد علموا أنَّ محمَّد صلى الله عليه وسلَّم جاءهم بخير الدنيا والآخرة ، وأنَّ السَّير على خطاه ، واتِّباع شريعته الكاملة التي أكمل شريعة لا نقصان فيها ، وإن عدنا إلى سير الصحابة رضي الله عنهم لوجدناهم أنَّهم تعلموا من رسول الله كل شيء حتى الخراء ، قال أبو ذر رضي الله عنه : ((تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم)) (أخرجه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه ٦٥) وأما ما قاله أبو ذر (عندنا منه علم) يعني بأوامره ونواهيه وأخباره وأفعاله وإباحته صلى الله عليه وسلَّم .

تطلق على السنة على أربع إطلاقات وهي :

- ١- أنَّ كل ما جاء في الكتاب والسُّنة هو سنَّة صلى الله عليه وسلَّم ، وهي طريقته التي كان عليها صلى الله عليه وسلم ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ((فمن رغب عن سنَّتي فليس مني)) (البخاري ٥٠٦٣ ، مسلم ١٤٠١)

٢- أُنْضِ السَّنَةَ بِمَعْنَى الْحَدِيثِ ، وَذَلِكَ إِذَا غُطِّتْ عَلَى الْكِتَابِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضَلُّوا أَبَدًا : كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ)) ، وَقَوْلُهُ ((إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُمَا : كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي)) (رَوَاهُمَا الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٩٣/١)

٣- أنَّ السَّنةَ تطلق في مقابل البدعة ، لحديث النبي صلى الله عليه وسلم من حديث العرباض بن سارية : ((فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافٍ كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّينَ الرَّاشِدِينَ ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعُضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ)) (أبو داود ٤٦٠٧ ، والترمذي ٢٦٧٦ ، وابن ماجه ٤٣-٤٤ ، وقال الترمذي حديث حسن صحيح) .

٤- أنَّ السنة تطلق بمعنى المندوب والمستحب ، وهو ما جاء به على سبيل الاستحباب ، لا سبيل الإيجاب ، وهذا الإطلاق للفقهاء ، مثل حديث النبي صلى الله عليه وسلم : ((لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة)) (البخاري ٨٨٧ ، ومسلم ٢٥٢) .

فإنَّ الله سبحانه وتعالى أمرنا باتباع مُحَمَّد صَلَّى الله عليه وسلم ورغبنا في ذلك ، وقد حذَرنا أيضاً من اتباع السَّبِيل المتفرقة الذي يكون على كل سبيل شيطان يدعو إليه ، وكذلك رسولنا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم أمرنا باتباع السنة وترك البدع المضلَّة وترك السبيل إلا سبيل الله تعالى فهو السبيل الوحيد الذي ينجِّينا ويوصلنا إلى رضى الرحمن وجنانه .

وقد أحسن من قال :

ترجوا النّجاة ولا تسلك مسالكها ***** فَإِنَّ السفينة لا تجري على اليبس

ومن الآيات التي تدلُّ على التَّغْيِيبِ فِي اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وتحذيرنا من مخالفته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال تعالى : {وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي
مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
١٥٣ الأنعام

وقوله : {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} الأحزاب ٣٦

وقد جاء في حديث جابر الطويل في حجة الوداع قوله صلى الله عليه وسلم : ((وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله ، وأنتم تسألون عني ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : اللهم اشهد ! اللهم اشهد ! ثلاث مرات)) (مسلم ١٢١٨)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا يا رسول الله ! ومن أبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى)) (البخاري ٧٢٨٠)

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ((اتبعوا ولا تبتدعوا ، فقد كفيتم)) (الدارمي ٢١١)

قال عثمان بن حاضر : ((دخلت على ابن عباس ، فقلت : أوصني ، فقال : نعم ! عليك بتقوى الله والاستقامة ، اتبع ولا تبتدع)) (الدارمي ١٤١)

قال عبد الله بن عمر : ((كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة)) رواه محمد بن نصر المروزي في السنة .

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : ((فإياكم وما يبتدع ، فإن ما ابتدع ضلالة)) (رواه أبو داود ٤٦١١)

قال الإمام مالك : ((من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمد خان الرسالة ، لأن الله يقول : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } ، فما لم يكن يؤخذ دينا فلا يكون اليوم دينا)) (الاعتصام للشاطبي ٢٨١)

قال الإمام أحمد : ((أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والافتداء بهم ، وترك البدع ، وكل بدعة ضلالة)) (شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٣١٧)

فقد أوصى العلماء من سلف هذه الأمة ومنهم الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، بالأخذ بما دلَّ عليه الدليل وإن كان يخالف أقوالهم ، وقد اشتهر قول الإمام مالك : ((كلُّ يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم))

قال ابن القيم : فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النَّص لم يُهدر ولم يهضم جانبهم ، بل اقتدى بهم ، فإنهم كلهم أمروا بذلك ، فمتَّبِعُهُمْ حقاً من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم))

قال الإمام الشافعي : ((أجمع النَّاس على أنَّص من استبانته له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد)) (الروح لابن القيم ص : ٣٩٥ - ١٩٦)

قال أصبغ بن الفرّج : ((المسح (يعني على الخفّين) عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أكابر أصحابه في الحضر أثبت عندنا وأقوى من أن نتبع مالكاً على خلافه)) (فتح الباري ٣٠٦١)

قال ابن حجر : ((المالكيّة لا يقولون بالترتيب في الغسل من ولوغ الكلب ، قال القرافي منهم : قد صحّت فيه الأحاديث ، فالعجب منهم كيف لم يقولوا بها !)) (الفتح ٢٧٦١)

snamalislam

